قُدَّاس الشيخ رضوان

قصص

خيري شلبي

Amly

هدية مجلة الاذاعة والتليفزيون - ١٥ ديسمبر ٢٠٠٧

www.alkottob.com

قُدَّاس الشيخ رضوان
قصص

www.alkottob.com

خيري شلبي

قُدَّاس الشيخ رضوان

قصص

هدية مجلة الإذاعة والتليفزيون
١٥ ديسمبر ٢٠٠٧

الإشراف العام:
عبدالناصر عيسوى
الإخراج الفنى والرسوم:
مدحت عبد السميع
تنفيذ: حسام عنتر

www.alkottob.com

قُدّاس الشيخ رضوان!

الشيخ رضوان المالكي ليس شيخا على الإطلاق ولا يمتّ أية صلة لأية مشيخة. ومع ذلك فجميع أهالي بلدتنا «شباس عمير» ينادونه بلقب الشيخ، ربما لأنّ لفظة الشيخ باتت جزءا من اسمه مثلما تدخل ألقاب كثيرة في أسماء الناس عندنا، بل يدوّن في شهادات ميلادهم كالشباسي والفرماوي والقاضي والنجار وما إلى ذلك. العجيب أن اللقب الذي كان جديرا بأن يدخل في تركيب اسمه - وهو النجّار - لم ترد له إشارة في اسمه أبدا. ذلك أن شهرته كنجار أزاحت عن الأذهان لفظة التعريف: النجار. فأصبحت بلا ضرورة، لأنك ما إن تذكر اسم الشيخ رضوان المالكي في بلدتنا حتى تتداعى في ذهنك أعمال النجارة ذاتها، بل تكاد تشم رائحة الخشب الجديد وصدأ المسامير القديمة والنشارة التي تفرش أرض ورشته كسجادة بدائية لا تخلو من جمال ساحر، سيما في زمن المطر الغزير بأوحاله التي تعجن الأرض.

لا أحد في بلدتنا- حتى في عائلة المالكي نفسها وهم أخوالُ لأمي- يذكر متى نُودي الشيخ رضوان المالكي بلقب الشيخ لأول مرة، ولا كيف التصق به الاسم مع أنه لا يقرأ ولا يكتب، ولكنّ

www.alkottob.com

الرجال في محيط عائلتنا يبتسمون في أريحيَّة إذا جاءت هذه السيرة في أيّ «قعدة عائلية»، ثم يُعلّق الكبار منهم بأنّ لقب الشيخ- على كل حال- لم يغترب لأن عائلة المالكي في الواقع مُتديِّنة طول عمرها وفيها- دائما أبدًا- أكثر من شيخ رسمي تعلَّم في الأزهر ولبس الجبَّة والعمامة وأمَّ الناس في الصلاة وخطب على منبر الجمعة عن جدارة، وصحيح أن العائلة يكثر فيها الفُسَّاق والمُنحَلُّون والمدمنون بصورة تكاد تنافس صورتهم التَّديُّنيَّة البارزة، إلاَّ أنَّ الغالب على سُمعتها مظهر الاحترام في نهاية الأمر، ثم إنَّ الشيخ رضوان نفسه رجلٌ طيب القلب مؤمن لا يؤجل فرضًا من الفروض، بل إنه أول من يدخل المسجد وآخر من يخرج منه، ومن هنا فإنه- لا شك- يستحق المشيخة.

ويقول أبي في نبرة تَشي بالتحيُّز العاطفي للشيخ رضوان- رغم أنه لا يحب العائلة برُمَّتها- ولولا أنهم أخوال أمي لما أقام لهم وزنًا على الإطلاق؛ يقول مُشوِّحًا:

- «شيخ شيخ.. إنتو خسرانين حاجة! ولاَّ تكونش المشيخة دي لقب ينعم به الملك على من يرفعه من الرعيَّة كالباشا والبك! الناس شَيَّخت الشيخ رضوان! خلاص! فلْيَكُن الشيخ رضوان! ماذا يضيركم في هذا؟».

يخشى الخبثاء اللؤماء من عائلتنا- خاصة النساء العجوزات- أن يجهروا بسبب الاعتراض القابع في نفوسهم جميعًا بمن

فيهم أبي نفسه، تكاد عينا الحاجة «نحمده»- وهي زوجة أكبر أعمامي وبنت عمّه في نفس الوقت- تسْلقان أبي بشُوَاظ من لهب تبعثُه من ركنها الأثير خلف بوَّابة الدار، وهي مع ذلك نظرات باسمة هازئة مشرقة بكثافة السِّنين على ملامحها الجارمة ذات الجمال العتيق الباقي رغم بلوغها السبعين من العمر، ودون أن تنطق بحرف نفهم جميعًا ماذا تعني هذه النظرة..!

إننا نعرف ترجمتها الصوتية من فرط ما سمعناه من تعليقات على تصرفات الشيخ رضوان المالكي من أنه «فلاتي» يعشق «قعدة النسوان»، ويتسلَّل بينهنَّ في نعومة فائقة يتبادل معهنَّ الوُدْوَدة ومسك سيرة الناس؛ وقد أكَّد جميع الرجال الذين يسهرون في مندرتنا أنَّ النسوان فقَدْنَ الشعور برجوليَّة الشيخ رضوان المالكي، ولهذا يطلبن الجلوس معه دون أيّ شعور بالحرج، ربما لبراعته في تقليد لهجة النسوان وحركاتهنَّ والتوسُّل بضرب الحاجب وغمز الشفتين وتسبيل العينين رغم الرجوليَّة المفرطة في مظهره، إذ هو مشعراني، كثيف الشعر في كل ملليمتر مربع من جسده حتى ليبدو من بعيد كحيوان أليف، كقرد كثيف الشَّعر، في الصدر غابة، وعلى ظاهر اليدين غابة، وفي الساقين غابات، ناهيك عن لحية تطلب الحلاقة والتشذيب كل بضع ساعات، إلا أنه لا يفيق لها فيتركها إلى أن تستحق الحَلْقَة- شَعْرًا وذَقْنًا وتسوية شارب- الخمسة مليمات

www.alkottob.com

التي يدفعها لفتحي سَعادة المزيّن، كما أن صوته- مَهْمَا نعّمه ورَقّقَهُ وشَذّب خشونته- رُجولي صِرْف. ومن هنا الطرافة، فرجل بارز الرجولة- وطيب القلب في آن، ومُبرأ من السلوك المشين- لا بُدّ أن يكون طريفًا خفيف الظل حين يتخاطب مع النسوان بلَهْجتهنّ ومُفرداتهنّ ونفس حركاتهنّ في التلويح بالأيدي المفرودة الأصابع.

في رأي حكماء عائلتنا أنه أُجبر أن يصير هكذا لأنَّ النسوان هُنَّ المجال الحيوي في حياته، فهو كنجّار متعدّد المهارات، من إصلاح السواقي إلى صُنع الأبواب والشبابيك والأسقف، إلى صُنع الكَنَب البلدي والدواليب والصناديق، إلى تصليح- بل وتصنيع- الضَبّة الخشبية التي تفتح وتغلق أبواب الدُور، وكل هذه الأعمال زبائنها في معظمهم من النسوان، هُنَّ اللائي يَسْتَدْعينَهُ أو يذهبن إليه في الورشة ويتّفقن معه ويُساومْنَهُ ويُناكفْنَهُ في المساومة، وهو يلتفّ حَوْلَهُنَّ مُقدّمًا فيُصاحبهنَّ ويتحدّث معهنَّ في الخصوصيات بِرُوح أخويّة وَدُودَة حتى ينجح في تخديرِهنَّ وامتلاك السيطرة عليهنَّ فيَنْجُو بذلك من المساومة وينفي عن نفسه اللّوم والحرَج إذا ما اضطر لطلب التشهيل في دفع باقي الحساب.

أمّا كون الشيخ رضوان المالكي- بهذا الأسلوب في الحياة- قد تمكّن من معرفة كل أسرار بيوت البلدة- وبالتفصيل- من

كبيرة لصغيرة، فإنَّ هذا لا خَطر منه في الواقع، لأنَّ الشيخ رضوان- والحق يُقال- كالبحر، تهدر أمواجُه فتكتسح كلَّ ما يعرفه وتُلقي به إلى بعيد، أو تهبط به إلى قاع سحيق لا يستطيع بلوغه أحد. إنه يستعيذ بالله من الشيطان الرَّجيم كلما نخَسَتْهُ في جَنْبه معلومة جديدة ذاتُ حساسية من نوع ما، تلمع عيناه الزرقاوان بما يبدو أنه خُبث كخُبث المشعْوذين، لكنَّ البريق سرعان ما ينطفئ، وتنسدل أهدابه في ورع وتقوى، ثم ما يلبث حتى يرفع رأسه للسماء باسطًا يديه مُردّدًا في ابتهال:

- «اكفنا شرّ الفضايح يا ربّ!»

وفي الحال يتجاهل الأمر كأنْ لم يكن.

نسوان البلدة يُعاملْنَهُ كَقطٍّ أليف، وإن كان ذَكرًا شرسًا عند اللزوم. يتردّد في مَنْدَرَتنا باستمرار أنهنَّ يُحْبِبْنَهُ لأنه ليس لديه أيّ مشكلة على الإطلاق، فكل التصليحات «العُقدة» التي يعجز عنها الأسطوات جميعًا- من المؤكّد أن حَلّ عُقدتها سيكون على يد الشيخ رضوان المالكي، لا بُدّ أن يخترع لها حلاً بسيطًا جدًا، لكنه- لفَرْط بساطته- غاب عن أذهان الكثيرين.

وحين يجوع في أيّ دار من دُور البلدة يطلب الأكل في الحال، والأكل عنده اسمه لُقمة: مَفيش لقمة يا أسيادنا؟ وبَصَلة المحبّ عنده خروف، رغيف وعِرْق لفت، عُودين من فجل، طبق مش، باذنجانة محدّقة، حزمة سريس، كُلّه خير وبركة، حشو

www.alkottob.com

معدة والسلام، والحمد لله. عياله الثلاثة رجال لهم أحفاد، وعدّة الورشة موزّعة بينهم. دائمًا أبدًا يكتشف أنّ المنشار الكبير مع القدوم الكبير سَرَح بهما عبّاس لإصلاح ساقية، وأن السَرّاق- المنشار الشريحة- أخذه محمد وراح يُنشئ باب خُنّ للدجاج في دار بعيدة، وأن الفارة والعتّلة مع عبد الحميد في مشوار لتجهيز كنب لإحدى العرائس، ولكن لا شيء من ذلك يُعطّله، لكلّ أداة عنده بديل يخترعه في الحال، إنه من فرط الدربة والحُرْفَنة والخبرة الطويلة يكاد يستغني عن جميع الأدوات، لأنّ أصابعه قد احتوت مواهب الأدوات، سيما وأن عياله الثلاثة قد تكفّلوا عنه بجميع المهمّات الثقيلة وتركوا له الأعمال البسيطة التي لا تحتاج إلاّ لأبسط الأدوات قياسًا على خبراته العميقة.

جميع الرجال كذلك يحبونه بعُمق وإن سخروا منه واستهجنوا الكثير من تصرفاته التي تبدو لهم خَرقاء خارجة على المألوف. على أن هؤلاء وأولئك يذوبون وَجْدًا وطربًا حين يكون الشيخ رضوان المالكي مندمجًا في العمل مُتوحّدًا مع نفسه الطَّروبة مسترسلاً في الغناء لنفسه بصوت خافت، حينئذ يبدو كأنّ السماء نفسها تغني، بكل ما في الفضاء من طيور مُغرّدة، الطير والحيوان والحشرات والنباتات وكل ما يتنفّس على الأرض يصير نغمًا شجيًا ينساب متدفقًا فيمتلئ المكان كلّه بمشاعر

زاحفة على الأرض محلّقة في السماء تبعث الدفء والقشعريرة في النفوس، قد تدفعها إلى البكاء بحرقة إلا أنها حتى وإن بكت فمن البهجة، حيث ينفض النغمُ القلوبَ نفضًا يخلّصها من أوجاعها ويصهر السموم المتراكمة على الصدور فتهمي دمعًا على الخدود.

لا غَرْو، فالكُلُّ يعرف أن الشيخ رضوان المالكي كان المؤذّن الرئيسي للجامع الكبير في وسط البلد في عزّ شبابه، في استغاثة الفجر ينساب صوته إلى الأفئدة المتدثّرة بالأحرمَة الثقيلة فيُوسع أعصاب الأجسام النائمة، يُضاعف حجمها فينحسر عنها الغطاء فتنهض واقفة تلهج بالأدعية، كلُّ واحد أو واحدة يصحو لحظتئذ يُعيد صياغة الاستغاثة في نسيج خاصّ به، حيث يدخل في سياق كلّ عبارة ليُرَصّعها بدعَواته وابتهالاته الذاتيّة الخاصّة. ورغم أنه قد هَجَر استغاثة الفجر واستغاثة الجمعة منذ ما يقرب من عشرين عامًا- حيث أصيب بمرض الروماتيزم فلم يعُدْ يقْوَى على الصَّحو قبل موعد الفجر في عزّ الصَّقيع- فإن الأذان في بلدتنا لا يزال مرتبطًا باسْمه مع أن المساجد عندنا استقطبت مآذنُها شبانًا كثيرين ذوي أصوات جميلة قويّة. حين يلتبس الوقت على الناس في لحظات العمل يتساءلون وهم ينظرون في ساعاتهم: «الشيخ رضوان أذّن ولاّ لسّه؟». ويقول بعضهم لبعض عند تحديد المواعيد: «أوّل ما

www.alkottob.com

تسمع الشيخ رضوان بيأذن الفجر تيجي تخبَّط عَلَيَّ». في قلب كل واحد من أهالينا وجَع حميم مبهج غَرَسَهُ فيه صوت الشيخ رضوان المالكي باستغاثته للفجر، التي كانت تستغرق ما يقرب من نصف ساعة يصُول فيها صوته ويجُول، باكيًا نائحًا عاصرًا دموعَ الوَرَع والتقوى.

من حُسن حَظِّي أن طفولتي أدركتْ طرفًا غير قليل من تلك الاستغاثات الرضوانية الجبَّارة، حيث كانت مشاعر الرَّهبة تمزّقني وتبدّدني فأتُوه تحت تأثيرين عنيفيْن: صوت الشيخ رضوان وما يضُخُّه في الفضاء الواسع الخالي من جمرات لهب تضيء وتبعث الدفء مع القشعريرة في أوصالي، وصوت أمّي وهي تستقطب عَدْوَى النواح المرعوش بجيَشَان مروّع وهي تُردّد خلفه الأدعية، فكأنها تنسج أمام ناظري سجَّادة مسطورة بعبارات الاستغاثة ومنقوشة بدعوات أمي بأن يغفر الله لها ولكافة العباد وأن يُهيِّئ لنا من أمرنا رَشَدًا ويبسط لنا الرزق ويُسدّد خُطانا بالتوفيق. من طيبة قلبها تظنُّ أنَّ الله في حاجة لأن تُذكّره بأسماء عيالها فتذكرهم له واحدًا واحدًا. ومنذ ذلك التاريخ وأنا أُحبُّ الشيخ رضوان المالكي وأعتبره فاكهة بشريَّة عبقرية المذاق حقًّا، أُحبُّ شكله الذي لم يتغير طوال عمره الذي عاصَرْتُه، نفس الحنَك الواسع تُطلُّ من بين شفتيه

الممتلئتين أسنانٌ كبيرة عليها طبقاتٌ من صدأ الشاي الثقيل وتدْخين السجاير اللَّفّ، وشاربه الخفيف أبيض الشعر كبقايا فُرْشاة نَحَل الزمانُ وَبَرَها، على شفتيه ابتسامة لا تجفُّ ولا تغيب حتى وهو منفعل في الكلام بصوته الهادئ الحكيم المريح المؤنس كصوت شُخْليلة الأطفال، ما إن ينطقُ حتى يكُفَّ الجميع عن اللَّغط ويُنصتوا في انتباه وشغف، وإذ يتكلّم فإنه قد لا يقول شيئًا مهمًّا، بل الغالب أنه سيقول كلمة شديدة الهَيَافة لو قالها أحد غيره لأسْكَتَهُ الناس بزَفَّة من السخرية والاستنكار، لكنها- عندما يقولها- تصير بقدرة قادر كلمة مُهمَّة تستحقُّ أن يكون فيها فصل الخطاب؛ مما يجعل أبي يُصفّق كفًّا على كفّ من فَرْط العجب ويقول لمن حواليه: عَلَى فكْرة يا جماعة، إنَّ الكلام كُلَّهُ ليس مُهمًّا في ذاته مَهْمَا كان ثقيل الوزن ثمين المعاني، إنما المهم حقًّا هو الصوت الذي يقول الكلام وكيف يقوله بشكل يُرْغِمُ الناس على الاستماع إليه واستطعامه، وصوت الشيخ رضوان يُنير الكلام بإيقاعه الحكيم، فإذَا ما كُنَّا نظُنّه تافهًا ليس بتافه!..

غرام أبي بالشيخ رضوان المالكي معروف لجميع الناس؛ ليس فحسب لأنه من أخوال أمي، بل لأنهما صديقان منذ الطفولة، فدار المالكي القديمة التي آلت ملكيَّتُها إلى الشيخ

www.alkottob.com

رضوان باعتباره أصغر إخوته- حيث كان من يتزوّج منهم يبني لنفسه بيتا في أطراف البلد- مُلاصقةً لدارنا الكبيرة، وبين الدارين مَنْوَر مشترك ومفتوح على خلاء الحقول على شكل زاوية قائمة. دارُنا أوّل دار في هذا السرداب الجميل- الذي يتّسع بالكاد لمرور حمارين محمّلين بالبرسيم- على يسارك وأنت داخل؛ وفي مواجهتها على الناصية المقابلة جدار الكنيسة الممتدّ أفقيًّا بطول السرداب متجاوزًا حدود دارنا حيث ألحقت بها عدة دور يسكنها المعلّم غطاس سمسار القطن، والمعلّم إبراهيم صليب الموظف بمصلحة الشهر العقاري في مركز قَلْين، والمقدّس عزيز عبده وإخوته الكثار وهم وَرَثة لأملاك أبيهم الشاسعة من أراضٍ زراعية ونخيل يفوق الحصر، ثم يتفرّع السرداب عند نهاية دارنا إلى فرعين أحدهما يسبق الآخر؛ أمّا عند آخر دارنا فالسرداب يميل يمينًا ليلتحم بقناة تَسْري في أحشاء مساحة خضراء شاسعة تمتلئ بأشجار عتيقة عَفِيَّة سامقة تطرح خوخًا وعنبًا ونبقًا وبرتقالاً وليمونًا وفي أحشائها البعيدة يتخفّى قصر عائلة أبو سيف مالكة هذه الحديقة، وهذه العائلة وإن كانت تقيم آنذاك في مدينة طنطا إلاّ أنّ كل شيء في الحديقة يبقى فوق الشجر إلى أن يحضر مندوب عن العائلة ذات لحظة ليبيع الثمار للتجّار في مهرجان بهيج ينتظره عيال بلدتنا بشغف لكي يملئوا حُجُورهم بسواقط الثّمر ونفايات الفَرْز

الأوّلي. وأمّا الفرع الآخر من السرداب فإنّ تَشَابُه المباني يُعطي جدار الكنيسة امتدادًا طويلاً يصل إلى حدود بحر السبيل، ثم يميل السرداب يسارًا لينعطف بعد قليل مُكوّنًا حارة ضيّقة مُتعرّجة مع شاطئ بحر السبيل مُلتحمة بالشارع العموميّ حيث تلتحق بحارة مقابلة تسكُنها بضع عائلات من إخوتنا الأقباط، وكُلُّهم من ذوي الأطيان، وبعضُهم يعمل في الصرافة وتجارة الحبوب وبعضهم الآخر حِرَفي: نجار أو خيّاط أو حدّاد أو بَنّاء. وهُمْ جميعًا يحظَوْنَ برواج كبير في بلدتنا التي تثق في ذممهم بغير حُدود، حيث لا أحد فيهم يكذب أو يدّعي ما ليس فيه أو ينقُض عهدًا أو يتأخر في موعد أو يطمع في أكثر من رزقه، ولهذا فإنّ أبي لم يكن يفتح فمه بأيّ اعتراض حين يسمع عمّتي تفيدة- شقيقته الكبرى- تُطْري حُسْنَ الجيرة بقصائد مدح في أمانة الستّ أمّ جرجس الخيّاطة التي تخيط لنسوان الدار كُلّهنّ وتَرُدُّ إليهنّ ما تبقّى من فضلات الأقمشة أو تصنع منها الطواقي والمناديل. أبي نفسُه لو حَصَرَ أصدقاءه الأعزّاء لوجَد أن أغلبهم من القبط، يسهرون معه كلّ ليلة في مندرتنا حتى ساعة متأخرة من الليل، وقبل أنْ أُدرك الفَرْق بين الديانة الإسلامية والديانة المسيحية لم يكن يدور بخَلدي أنّ هذه الوجوه المتشابهة في كل شيء، تتكلّم نفس الكلام، تلبس نفس الثياب، تأكل نفس الطعام، تحكي نفس الحواديت، تترنّم

www.alkottob.com

بنفس الأغاني، فيما تتبادل أكواب الشاي ولفّ السجاير- يمكن أن يكونوا طائفتيْن لكلٍّ منهما عقيدتها وصلواتها وصَوْمُها المختلف، وحتى بعد أن كبرتُ وأدركتُ البُعْد الإنساني للديانات بَقِيَت الملامحُ تلتبس عليَّ إلى اليوم، فكثيرًا ما أنادي على أحد الرجال باعتباره عمّ محمّد رمضان، فإذا اقتربتُ منه اتّضحَ لي أنه عمّ صليب، والعجيب أنّ الملامح واحدة إلى حدّ التطابق، والأعجب أنّ كليهما فلاّح ونجّار سواقي معًا، كما أنّ الجلباب يُشبه الجلباب. ولم أكُنْ وَحْدي مَنْ يقع في هذا اللَّبس، فالشيخ رضوان المالكي نفسُه مشهور في حارتنا بالمقدّس عَزُّوز، كما أنّ المقدّس عَزُّوز مشهور- ربما في البلدة كلّها- بالشيخ رضوان، وذلك لشدّة التطابُق بينهما في القامة النحيفة الصُّلبة وفي المشية المفرشحة وفي الشارب الأبيض واتّساع الحنك وبروز الجبهة تحت الطاقيّة الصُّوف المُنْجعصة إلى الوراء بشكلها الهرمي كأنها ما بَقِيَ من تاج الملك مينا مُوحّد القُطْرين. وكلاهما- الشيخ رضوان والمقدّس عَزُّوز- سعيدٌ باسْمه المستعار، بل إنهما حينما يلتقيان ليلاً في مندرتنا حول أكواب الشاي الثقيل والجوزة يتبادلان التنكيت بصورة تهزّ جدران المندرة من فرقعة القهقهات المرحة المنطلقة، ففي كلّ ليلة يجيء أحدهما بدليل جديد يؤكّد صدق ادّعائه بأنّ أمّ الآخر كانت «تتوحّم» على أبيه. في إحدى الليالي دخلتْ عمّتي تَفيدَة لتُعلن احتجاجها على

هذه المَحْشَشة التي حرمَتْها النوم. إلا أنها اسْتَحَت من الرِّجال فدفعَت بعُكّازها إلى الأمام وجلست على طرف الكنَبة القريبة من باب الدّهاليز، وإذْ ألمّتْ بطرف من المهاترة الدائرة أرادت أنْ تُعالج الخلاف فدرْغمتْه، قالت إنّ الشيخ رضوان مولود أمامها داخل حرم الكنيسة حيث كانت أمُّه- وهي حامل فيه- قد اشترت عشر شمعات وفاءً لنذر على ذمّة ماري جرجس، كانت قد نذرَتْه بين يدي الستّ أم أستير حينما ذهبت إليها تستشيرها في أمر انقطاع الحمل عنها طوال أربع سنوات فأشارت عليها أم أستير أن تستبرك بماري جرجس وتنذر له نذرًا وهو يتوسّط لها عند الربّ كي يُعيد إليها الخصوبة، فالتزمَتْ أمّ رضوان بهذا النّذر، فلمّا حملَتْ بالفعل نسيتْ أمْرَه، لكنّها شعرتْ بأنّ المخاض تأخّر والجنين كفّ عن الحركة في بطنها فحينئذ تذكّرت النّذْر فارتَعَدَت، ومن فورها باعَتْ تحويشة بيض الدّجاج واشترت الشمعات ودخلت الكنيسة لتضعها بيديها فوق الهيكل، فما إن دلفتْ إلى الباحة حتى جأرت بالصراخ وتكوّمت على الأرض، فما كدنا نلحقها حتى كان الشيخ رضوان يصرخ تحت حجرها ويرفس. كانت عمتي تفيدة تُريد إيقاف الضّحك ففجّرتْه تفجيرًا، إلا أنها دقّت الأرض بعُكّازها في قوّة فانتبهوا، فقالت: أما المقدّس عزّوز فقد وُلد في عزبة نصيف ولم تجئ عائلتُه إلى بلدتنا إلا وهو صبي.

www.alkottob.com

شَدَّ أبي نفسًا من الجوزة ولمعَتْ عيناهُ بخبث لطيف وهو يقول:

- «إنتي نسيتي حاجة مهمَّة يا تفيدة يا أختي..»

فدقَّت الأرض بعكازها صائحة:

- «صبرك بالله عليَّ.. انتم صدَّعتُم رءوسكم ورءوسنا من أجل أن تعرفوا سرَّ الشبه بين الشيخ رضوان والمقدَّس عَزُّوز، مع أنكم لو هرَشْتُم في أدمغتكم لتذكَّرتُم السبب!..

إنَّ الشيخ رضوان راضع من ثدي أمّ المقدس عزُّوز!»

حَطَّ عليهم صَمْتٌ مفاجئ فبَدَوْا كالأطفال حين يسمعون خبَرًا عن عفريت قادم، لمعتْ عيونُهم بالرُّعب والشَّغف، نكَّس بعضُهم رأسه في محاولة لعصر دماغه. وطرقع أبي بإصبعيه في ابتهاج صائحًا:

- «بس بس بس! مضبوط تذكَّرت! فعلاً أمُّ الشيخ رضوان جَفَّ لبنها بعد ولادته مباشرة!»

شَوَّحت عمَّتي تَفيدَة بالعُكاز كأنها تهدِّده بالضرب وشخطت فيه بقوة:

- «بل ماتت بعد ولادته بأيام! حُمَّى النفاس خطفتها من وسطنا خطفًا يا حسرة قلبي عليها!.. بحثوا عن مُرضع فجاءتهم أمُّ المقدَّس عَزُّوز غاضبة! قالت كيف تبحثون عن مرضع بالإيجار وأنا موجودة بجواركم؟! أيامها

كانت تُرضع أختك ماتيلدة يا مقدس أتذكر؟!»

أومأ المقدَّس عزُّوز برأسه في استعبار والبسمة الخجولة على شفتيه كأنه يتمثَّل شكل أمِّه لو كانت حاضرة الآن وسمعَتْ هذا الإطراء على ذلك العمل النبيل.

ذلك التصريح الذي أدلَتْ به عمَّتي تفيدة في تلك الليلة البعيدة فَسَّرَ لي الكثير مما لم أكن أدركه من تصرُّفات الشيخ رضوان المالكي تجاه الكنيسة. كان دائمًا أبدًا ينظر إليها بنفس القدر من الحنو الذي يربطه بجامع العصاروة الواقف على مبعدة خطوات قليلة. كان الشيخ رضوان هو المفوَّض من قِبل عموم أهلِ الناحية لمتابعة صيانة طُلُمبة المياه الخاصة بجامع العصاروة، وتمتدُّ متابعتُه إلى صيانة حنفيَّات الوضوء المتصلة بالصهاريج، وحنفيَّات دورات المياه، ودائما أبدًا تراه يجمع تبرُّعات قليلة لإصلاح أو استبدال الحنفيَّات، ولا يهمد حتى نفاجأ ذات يوم بأنه قد أفلح في تغيير معظمها، ودائمًا أبدًا يُوصي خطيب الجامع بالتنبيه على الناس بالتزام الرِّفق في التعامل مع الحنفيَّات وبعدم الاستحمام في دورات المياه. أمَّا بالنسبة للكنيسة فإنَّ عنايته بها تمضي في غير تظاهُر، كأنْ نُفاجأ ذات يوم بأنه في الورشة منهمك في التحاوُر مع قطعة خشب يحاول خَرْطها على طراز المشربيَّات لكي يُثبِّتَها مكان قطعة بالية في الهيكل.

www.alkottob.com

غير أنني كنتُ أعرف- بحكم الجيرة- أنَّ علاقة الشيخ رضوان بالكنيسة لها جانب خفيٌّ لا يعرفه إلاَّ سُكَّان حارتنا. أذكر أنني ذات يوم بعيد جدًّا، وفيما كنت ألعب النَّحلة تحت شباك مندرتنا مع محمد بن الشيخ رضوان فإذا بغناء هادئ ينبعث من داخل الورشة، كان صوت الشيخ رضوان أشبه بصوت الرَّباب يُصدر أنغامًا حَادَّة تُرْعِشُ البدَن ويقف لها شعر الرأس. رَمَيْتُ النَّحلة وانصرفت للإصغاء وقد أصابتنى بلبلة، فهذه الأنغام وإن فاجأتْني وزلزلتْني بَدَتْ مألوفةً لي، إنها نفس الأنغام التي سمعتُها أكثر من مَرَّة تصعد من داخل الكنيسة أثناء ما يُسمُّونه بقُدَّاس الأحد، انتبهتُ لحظتها إلى أنَّ هذا القُدَّاس لم يَعُدْ يُقَام منذ بضع سنوات، حتى ذلك الرجل اللطيف ذو العمامة السوداء واللِّحية السوداء والرِّداء الأسود، الذي كُنَّا نهرع جميعًا لنسلِّم عليه ونقول له كما يقول الكبار: يا أبونا، وكان الجميع يُسَلِّمُون عليه بحرارة ويطلبون منه الدعاء، وكان يُوزِّع علينا حَبَّات الكَرَمِلَّة والطُّوفي، كُنَّا نفرح بقُدومه جدًّا، ربما من أجل ذلك المهرجان الذي تُقيمُه الكنيسة، حيث يرتفع صوت الترانيم الراعشة للأبدان، فنَتَسَلَّق الأسطُح ونتسلَّل إلى الداخل ونَتَشَعْلَق في النَّوافذ العالية فوق أكتاف أمَّهاتنا لنرى صفوفًا من رجال يلبسون ثيابًا غريبةً متشابهة متوشِّحة، يضربون الكاسات ويحملون المباخر ويقومون بحركات قريبة

الشبه بحركات الذَّاكرين في الحضَرات وحركات المصلِّين في المساجد، إلا أنهم لا يركعون ولا يسجُدون، مع أنَّ أبي قال لي إنَّ هذه هي صلوات إخوتنا الأقباط. فلمَّا سمعتُ تلك الأنغام من الشيخ رضوان المالكي فَرِحْتُ كأنَّني نجحتُ في امتحان، وجرَيْتُ إلى الورشة متوقِّعًا أنَّ مهرجان الكنيسة سوف يعود بعد انقطاع. لم يعبأ الشيخ رضوان بي وظلَّ منخرطًا في الترنيم، فيما يُخطِّط بالقلم الكوبيا على شرائح من الخشب. سرعان ما انتبهتُ إلى أنَّ هذه الأنغام الكنسيَّة التي لم نكُنْ نفهم ما تنطق به من كلام هي الآن على صوت الشيخ رضوان تنطق ببعض كلمات مفهومة يَرِدُ فيها ذكر النبي محمَّد عليه الصلاة والسلام، وذكر الزَّمان الغدَّار، وابن آدم المغرور... قلتُ للشيخ رضوان بجرأة اعتادها منِّي:

- «أنت تُغني غناء الكنيسة بكلام من عندك؟»

فضحك وتأمَّلَني مَليًّا.. فهمتُ من بريق عينيه أنه يستحسن ذكائي، ثم إذا به يقول:

«بَـرَاوَة عليك يا عَكْـرُوت! الكلام من عندي واللَّحن من عند الكنيسة! أنا أصْلي أحبّ هذا الغناء وأذُوبُ فيه لدرجة أنني حفظته كُلَّه، مع أنني لستُ أفهم من كلامهم إلاَّ كلمة من الشرق وكلمة من الغرب، لكنني مُتَأكِّد أنَّ كلامهم في هذا الغناء مرفوع إلى ربِّ السَّموات والأرض!

www.alkottob.com

وعلى كلّ حال فإنني حين يجيء هذا الغناء على بالي يرتعش قلبي ويضع على لساني هذا الكلام!»

وَجدتُني أسأله:

- «منذ مُدَّة والكنيسة لا تُغنّي، فما السبب يا شيخ رضوان؟!»

انشرح وجهُه الأبيض كالرغيف المحروق من حرارة الفُرن، ثم هتف وهو يضع القلم الكوبيا فوق أذنه:

- «خلاص يا ولد ستُغنّي هذا الأسبوع احتفالاً بعيد القيامة بعد ثلاثة أيام! الكنيسة كانتْ محتاجة للترميم ومُهَدَّدة بالوقوع فوق رءوس المصلّين! والأب الذي كان يُوزّع عليكم الكَرَملَّة قد هلك منذ حوالي سنتين، يعني الله يرحمه! وقد عيَّنُوا أبًا جديدًا سوف يأتي في العيد لإقامة القُدَّاس! الحمد لله! انتهينا من ترميمها، ولو دخلتَها الآن فستجدُها كالعَرُوس! العَبْد لله قام بالواجب، فأنا أحسن من يُقيم الصلابات، كما أنَّ أحدًا لا يستطيع تجديد الهيكل مثلي! تعرف يا ولد! أجمل شيء في الدنيا أن يكون العبد خادمًا في بيوت الله!».

كنتُ واثقًا من صدقه، وأشعر بأنَّ فرحته بعودة القُدَّاس قد انتقلت إليَّ وراحَتْ تَسْري في عُروقي كجُيوش من النمل. جعَلْتُ أحسب الأيام في انتظار هذا المهرجان الغنائيّ البهيج. بعد

يومين من محادثتي مع الشيخ رضوان بدأتْ وُفودٌ من الضيوف تملأ حارتنا وتصبُّ في الكنيسة، ونحن جميعًا- كبارًا وصغارًا- نحتفي بهم ونضَع أنفُسنا تحت أعينهم مستعدّين لتقديم أيّ خدمة، ثم بدا أنَّ في الأمر مُشكلةً غامضة، حيث استُدْعيَ الشيخ رضوان إلى الكنيسة عدَّة مرّات، وانتحَى به البعضُ في أركان قصيّة عدَّة مرّات، وكان من الواضح أنهم يُجْهدُونَ أنفُسَهُم في محاولة لإقناعه بأمر ما، وهو يبدُو شاردًا، إلاَّ أنَّ وَجْهَهُ انطبعَ عليه شُعورٌ حرَتْ في تفسيره، بين الشُّعور بالفرح والشعور بالحرج، ممَّا أثار فُضولي وحَفزَني لمعرفة جلية الأمر، فكلَّما رأيته مُنْزَوِيًا في رُكْن يتحدَّثُ مع أحدهم تَسَلَّلتُ منْ خَلْفهما لأقف على مقربة منهما أحاول الْتقاطَ هذا الكلام، فما ظفرتُ من وراء ذلك بشيء.

إلى أنْ جاء اليوم الموعود، وكنت مارًّا أمام الباب الخلفيّ الذي يفتح على فناء الكنيسة المزروع ببعض أحواض الزهور، فتَلكَّأتُ وصرتُ أسترقُ النظر، ثم تجرَّأتُ ودلَفْتُ إلى الداخل، فإذا بي أرى المعلّم رزق الله الخياط واقفًا أمام رجل يرتدي لباس من يُؤدُّون القُدَّاس، والمعلّم رزق الله ممسكٌ بالإبرة وقد راح يقيس الوسع في اللِّباس ويُقطبه، ويضع عليه الوشاح، والحزام. رفعتُ رأسي إلى وجه الرجل، فتجمَّدت الصورة في عيني من فرط

www.alkottob.com

الذهول، ذلك أنَّ الرجل كان هو الشيخ رضوان المالكي. لم أستطعْ كتمان الخبر، جريْتُ إلى دارنا، انتظرتُ حتى انتهى أبي من قراءة سورة يس التي يقرؤها كلَّ يوم مرَّة فيما بين العصر والمغرب، قال: صدق الله العظيم، وأغلق دفَّتي المصحف ونظر نحوي:

- «عاوز إيه يا ولد؟»

أبلغتُه بما رأيت، فانفشخ حَنَكُه عن ابتسامة هتماء خفيفة الظلّ اكتشفتُ فيها الكثير من شقاوة الأطفال. ثم قال:

- «يعني وافق الشيخ رضوان!»

- «وافق على إيه؟»

صارت الابتسامة ضحكةً متكسّرة، من خلال فتافيتها جمعتُ تفاصيل الموقف: لقد هاجَر من بلدتنا أحد أهمّ حَفَظة القُدّاس وحامل نوته الموسيقية، ولم يبقَ إلا شُبّان صغار يلزمهم حافظ يضبطهم ويقودهم، ولمّا كان الشيخ رضوان من أحفظ الحفَظة طوالَ ما يزيد على نصف قرن من الزمان أمضاهُ في عشق القُدّاس والألحان الكنسيّة فما المانع أن يتطوّع بإحياء القُدّاس مع إخوتنا الأقباط؟! ها هو ذا الشيخ رضوان المالكي لم يجد مانعًا، كثّر خيره على كل حال.

هكذا أنهى أبي حديثه. ورغم نوبة الضحك التي ألمّتْ به كان شيءٌ ما في عينيه يَشي بأنه هو الآخر لا يجد أيَّ مانع في أن

يتطوّع الواحد بمثل هذه الخدمة البريئة النقيّة الخالصة لله وحده. والواقع أنّ أبي ورفاق مَنْدَرتنا كانوا أكثر منّي فضولاً، إذ بينما أنا مُنْزوٍ في ركن بعيد من فناء الكنيسة أتابع مبهورًا وقائع القُدّاس وأرى الشيخ رضوان قد ذابَ في الألحان وصار أشبه بملاك يطير محلّقًا في فضاء النغم ليهبط في دفء وحرارة ليستقرّ في صدري يُهدهده، لمحتُ أبي والرّجال يدسُّون رءوسهم على استحياء وينظرون كأطفال ضاعفَت الرهبة من ملامحهم واعتقلت رغبتهم في الضحك، بل سرعان ما اندمجوا في النغم وشملتهم حالة من الورع، لولا أنّ صوت أذان العشاء فوق مئذنة جامع العصاروة القريب جدًّا من موقع الكنيسة انتزعهم وسحب رءوسهم. سمعتهم يهرولون نحو المسجد، وسمعتُ صوت أبي يقول للرجال إن القدّاس على وشك الانتهاء وإن الشيخ رضوان- على فكرة- يمكنه اللّحاق بصلاة العشاء جماعة إن كان لا يزال على وضوئه. وبالفعل، لم يكن أبي وأصحابه قد وصلوا إلى باب المسجد بَعْدُ حينما تسلَّل الشيخ رضوان مُنسلخًا من الصَّفّ تاركًا الشبان يُكملون بقية الصلوات والتسبيحات الختامية. اندفعتُ جريًا لألتقيه عند الباب الكبير، لكنني تخذتُ طريقي تلقائيًا إلى المسجد لأتوضأ بسرعة. وكان المصلّون قد انتهوا من أداء السُّنن واصطفّوا خلف الشيخ الإمام عبد المقصود الجمّال ونكّسوا رءوسهم يستمعون

www.alkottob.com

إلى ترتيل الإمام، ثم كبَّر الإمام وانحنى راكعًا فتهاوَتْ خلفه جميع الصفوف راكعةً تسبح باسم ربها العظيم. وقبل أن يتأهَّب الإمام لعدل قامته دوَّى من خلفنا صوت الشيخ رضوان المالكي صائحًا:

- «إنَّ الله مع الصابرين!»

فتمهَّل الإمام حتى سمعنا صوت الشيخ رضوان ينوي في اختصار:

- «نويت.. الله أكبر.. الله أكبر»

لحظتئذ تذكَّرتُ أن الشيخ رضوان هو الذي يقوم بدور المبلِّغ في كل صلاة إذْ تسجُد الصفوف وتركع وتعتدل وتُكبِّر بناء على ترديداته المنغومة وراء الإمام، وبالفعل ما كدنا نعتدل واقفين حتى رَنَّ صوتُه مُدَوِّيًا: رَبَّنا!!! ولكَ الْحَمْد.

ليلة السلعوَّة

كلبة يزيد بن بهانة الهفتانة كانت على علاقة طيبة بأهل بلدتنا أجمعين. فرغم كثرة الكلاب في بلدتنا فإن كلبًا واحدًا منها لم يحظَ بشيء من شهرة ونجومية كلبة يزيد البرلسي الشهير بابن بهانة، ولعلَّ كلبته هي التي أغدقت عليه الشهرة في بلدتنا. الكل يعطف عليها، وهي تبادل الجميع وُدًّا بوُدّ، لا ترَى رجلا أوْ امرأةً أو طفلاً يبعُد عن الديار ولو قليلاً إلا ورافقَتْهُ حتى تطمئن إلى سلامة وصوله إلى حيث يُريد فترتدّ عائدةً، ربما خلف شخص آخَرَ عائد إلى البلدة.

الحاج عزوز ابن عمي- عُمدة البلدة- كان من فرط حبه لها يستضيفها كثيرًا في شرفة بيته المطلة على مصرف عريض عتيق، يُلقي أمامها ما تخلَّف من موائده من بقايا طعام دسم، حتى ربربت الكلبة وصارت كالهرة؛ لا يَني يردِّد كلَّما لاحظ أنني أحسدها على هذا النعيم:

- «كلبة جدعة يا بو رمضان! مش خسارة فيها!»

كل أهل البلدة يبصمون بالعشرة على أن كلبة يزيد أجدع من ناس كثيرين، يقصدون بهذه الغمزة نفرًا من عائلات شبعوا

www.alkottob.com

بعد جوع واشتروا أرضًا زراعية بنوا فوقها ما يشبه القصور والفيلات وأصابهم مرض الكبر والأنفة أو كما قال الحاج عزوز يريدون أن يَشمُّوا أنفاسهم التي تقطَّعت طوال سنين البؤس التي كانوا فيها «تملية» وأُجَريَّة باليومية. كانوا يثبتون أنَّ كلبة يزيد ابن بهانة الهفتانة أجدع من آبائهم، فرغم قسوتهم وغثاثتهم كانت تهبُّ للملاقاة الواحد منهم بحفاوة إذا لمحته قادمًا إلى البلدة، وترافقه برقصة الترحيب الواجبة، فلا يكتفي بأن ينهرها لترجع؛ إنما قد يغافلها ويشوطها ببوز حذائه في مقتل، وقد يهوي بنبُّوت فوق رأسها أو في قدميها؛ فتعوي بالنِّياع وهي ترتدُّ مهيضة لترتمي في أقرب مكان تُواصلُ الولولة والعويل. عندئذ لا يتورَّع الحاج عزُّوز عن شَتْمه بأغلظ الألفاظ؛ فلا يردّ عليه المشتوم إلا بعبارة مُدغَمة بنبرة احتجاج:

- «هيَّ يعني كانت كلبتكم؟!»

لكنه يقولها برعشة وبسرعة فيما هو يركض متأهبًا للجري، إذ إنه على يقين من أن الحاج عزوز قد يعبر حاجز الشرفة مهرولاً وراءه بالعصا، ولابد أن يدركه أو تدركه العصا التي هو بارع في قذفها وراء مَنْ لا تطاله يده. يفعل ذلك وأكثر ليس لأنه عمدة البلدة فحسب وإنما لأنه- دون أهل بلدتنا كلهم- قد أبيح له- حتى قبل العمودية- أن يشتم التخين في البلد ويقرعه كيفما شاء، ربما بشرعية خفَّة الظلّ القويَّة الكاسحة، ربما لرجاحة عقله وحكمة تصرفاته وقدرته على الظهور في أزمات الناس بمظهر مشرِّف يدعو للامتنان، كل ضباط المباحث والمآمير في المحافظة يحبونه لجدّيته في خدمة الأمن وسلاسته في حلّ مشاكل البلدة قبل وصولها إلى قسم الشرطة. وقد احتاج لأن أرافقه دائمًا في كل مشوار وكل مجلس، ذلك أنني مدرس ابتدائي في مدرسة المركز وهي على مقربة من بلدتنا، وقريب منه في السن، وأقرب أولاد عمومتي إليه في الطبع والمزاج المرح، كما أن بيتي في مواجهة بيته، وإنه ليسعدني ذلك بالطبع وينعش كبريائي وشعوري بالعزوة، لكن المأزق الذي أستسخفه منه أنَّه يشركني معه في مؤامراته العبثية وفصوله الضاحكة ضد أولئك الذين زاحموه في هذا الخلاء الأخضر بالبناية مثله على الأرض الزراعية بيوتًا تكاد تكون أفخم من بيته!.. يطيب له أن يهزر معهم هزارًا ثقيلاً وفي منتهى القسوة أحيانًا، مُبرِّرًا ذلك بأنهم طائفة من ناس ليس يقوَى على بلعهم، لحمهم مزز، كريه الرائحة، إنهم شَبْعَة بعد جوعة، لزقوا في السعودية والإمارات وليبيا، استوطن عيالهم العراق سنين طويلة، جمعوا أموالاً طائلة، عرفوا الدولار والاسترليني، والفيديو والدِّش والمحمول ومن قبلها تليفون السيارة، كانوا أنصاف وأرباع قوالب أيام كانت عائلتنا مرهوبة الجانب في المنطقة، وهي لا تزال كذلك بفضل الله، ولكن هؤلاء الأوباش الأثرياء أصبحوا

www.alkottob.com

على وِشّ الدنيا في الصدارة كأنهم الباشوات الجدد!!.. يقول هذا من قبيل السخرية والمقلتة لا من قبيل الحقد، يقوله في وجه التخين منهم فلا يسع هذا التخين إلا الضحك مسرورًا بعُمق لمجرد أن سخرية الحاج عزوز حسبته بين الأثرياء، وقد يواجهه أحدهم- في لطف وأريحية- مذكرًا إياه بأنه- الحاج عزوز- هو الآخر سافر إلى الخليج كخبير للماشية في سلطنة عُمان ليتمكّن من بناء هذا البيت الكبير الأبهة بشرفات دائرية تحيطه من جميع الجهات، وأنه أوّل من تجرأ بالبناء على الأرض الزراعية في سبعينيات أيام اليغمة الانفتاحية، وأنه هو الذي شجعني على البناء في مواجهته على شريحة من أرضنا بعد عودتي من إعارة لي في السعودية.. فيعلّق الحاج عزوز:

- «ليتني ما بنيت! لو أعلم أنكم ستقرفونني في عيشتي كنت بقيت في البيت القديم! أصبحت أكْرَهُ هذا البيت بسببكم!».

مع ذلك تعتريه سعادة فائقة وهو يضطجع في هذه الشرفة المطلة على المصرف، في الهزيع المتأخر من الليل، يرقب البلدة العتيقة في مواجهته على الجانب الآخر من المصرف، سيما والجسر العتيق الذي يعبره الناس والماشية بينه وبين باب بيته خطوات قليلة فيرى الداخل إلى البلدة والخارج منها على السواء، على أن البهجة كثيرًا ما كانت تجيئه من نفس الأبواب

التي سبق أن ضايقه وجودها وانفتاحها على البهلي؛ لقد تَعفْرَتَ ذات يوم على أخيه لأنه باع جزءًا من نصيبه في الأرض ليزيد البرلسي ابن بهانة الهفتانة، الخواص، الذي سافر إلى العراق واشتغل في بيع الملابس الجاهزة المهرَّبة من تركيا بغزارة، ثم عاد بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية ليجد في انتظاره في البنك الأهلي آلافًا مؤلّفة من الدولارات كان يرسلها أولاً بأول، ترك بيته القديم لأمّه وأخواته البنات، أقام بجوارنا بيتًا محندقًا من ثلاثة طوابق بات فرجة للناس من حلاوة شكله وزخارفه وألوانه الزاهية، جعل من الطابق الأرضي كله دكان بقالة أسماه سوبر ماركت البرلسي، تسطع فيه وحواليه أضواء النيون تبهر القرويين، تذيقهم نكهة المدنيَّة تجلبهم للصخب والشراء والاستماع إلى شرائط الكاسيت التي يبيعها ضمن مئات من السلع، من المواد الغذائية والمعلبات والعصائر إلى الخردوات وكروت المحمول والمحمول نفسه وتأجير توصيلات لقنوات فضائية، وأطباق من الصيني والميلامين وأطقم فضّيات لزوم تجهيز العرائس، وثلاجات وتليفزيونات وأجهزة فيديو وبوتاجازات ومطابخ، وساعات، وإكسسوارات للزينة، وسنترال دولي يبيع المكالمات لأهل البلدة والعزَب المجاورة، إذ إنّ لهم أبناء مهاجرين إلى ألمانيا وفرنسا وسويسرا وجنوب أفريقيا ولندن وهولندا وكندا والبرازيل وجواتيمالا والمكسيك، منهم

www.alkottob.com

الأطباء والمهندسون والمحامون والمحاسبون وعلماء ذرة وكيمياء وأساتذة في الجامعة، منهم كذلك بائعو جرائد وغاسلو أطباق وفراشون وصنايعية وأصحاب مقاه وملاه. كان سوبر ماركت البرلسي مدينة وحده أشاعت الأنس من حولنا، وكان الحاج عزوز أشد الناس ابتهاجًا بهذا الصخب المؤنس حيث يتاح له أن يُكلم من يشاء في أيّ مكان من العالم وأن يطلب المأكولات الطازجة والمعلبات والمياه الغازية وقتما يريد فتجيئه لحدّ عنده مع مخصوص يحملها على دراجة؛ إلا أنّ داء السخرية ينقح عليه دائمًا؛ فبعد أن أنهى مكالمة دولية مع ابنته المقيمة مع زوجها طبيب الأطفال في المكسيك، وشرب علبة مياه غازية مثلّجة أخذ يُلوّح بالعود المجوّف الذي امتنع عن استخدامه في شفط المياه من العلبة:

- «والله وبقينا بنقول ألو يا أمريكا أو يا مكسيك بعد ما كُنّاش قادرين نقول ألو يا رغيف العيش الحاف! الله يرحمك يا جمال يا عبد الناصر! حزمت لنا البطون وفي الآخر انهزمْت واتسمّيت في بدنك! فينك تشوف الريف المصري واللي جرى له لما فاضت عليه فلوس الخليج؟! بقينا أوروبا والعياذ بالله! بنشتري اللبن والفراخ المجمّدة والعيش الفينو ونشيل المحمول ونرطن باللاوندي!.. يا محلا يا محلا.. يا ترى تمنه

كام التقدم ده يا ابن بهانة الهفتانة؟! أمريكا خلاص كلت العراق وهتقطّعه حتّت حتّت عشان كلّ ديب فايت ينتش له حتّة!.. زيّ ما إسرائيل كلت فلسطين.. ربنا هيسترها معانا إن شاء الله!.. لكنْ أنا باوْجع في دماغي ليه وانتوا ناس شايلين همّ بطنكم وبس؟!جاتكم نيلة! بكرة اللي كلتوه بطّ بطّ تنزّلوه وزّ وزّ!».

ويمسح شاربه ويمشي مشيعًا بالسلام ورحمة الله وبركاته ليلتك فل يا أبا الحاج..

على أنّ شيئًا طرأ على الحياة في البلدة جعل الحاج عزوز ينسى الهزار والفصول الضاحكة، أصبح يُغالي في احترام الكبير والصغير لكيْ يُشاورهم في أمر ذلك الخطر الداهم الذي بات يُهدد أمْن البلدة بقوّة، حيث كانت أنباءٌ تواترتْ عنْ ظهور سلعوة متوحّشة شرسة في الحقول المتاخمة للبراري، سرعان ما تجرأت على المساكن المتطرفة تفترس الدجاج والأغنام، تبقر البطون، تخمش الوجوه، تقلع العيون بأظافر حداد. في البداية كان الخبر أشبه بطُرفة يتندّر بها الرجال في قعدات المساء والسهرة، إلاّ أن هذه القعدات نفسها باتت ترتعد كل ليلة من هول أنباء عدد ضحايا السلعوة في كل البلدان القريبة من بلدتنا، عشرات بل مئات من أطفال وبنات ونساء ورجال وماشية تهاجمهم السلعوة في أعقار دُورهم على حين غرّة، تثير

www.alkottob.com

فزعهم فلا يفلحون في مقاومتها بله أن يقتلوها. أصبح موضوع السلعوّة مادة يومية ثابتة في الصحافة والتليفزيون والإذاعة والفضائيات العربية والأجنبية، باتت قلقًا مقيمًا يقتات على أعصاب الناس في الأماسيّ الحالكة المتوتّرة. أنباء اقتراب السلعوة من حدود بلدتنا يترجمها العائدون من الحقول البعيدة في حال يُرثى لها من الخضّة والاضطراب والجراح، حيث تمتلئ البلدة في الصباح بحكايات لا حصر لها عمّن هاجمتهم السلعوة من أهل بلدتنا، كلها محكيّة بنبرة واحدة حماسية وغريبة يشي إيقاعُها المتعجرف من فرط الرعب بأنّ للسلعوّة أن تهاجم جميع البشر في جميع البلاد أمّا بلدتنا وأهل بلدتنا فلا.. أو هكذا أرادوا الإيحاء للحاج عزوز وهُمْ ينقلونها إليه باعتباره العمدة المسئول عن حماية البلدة من كلّ خطر يتهدّدها، إلاّ أنّ بريقًا غامضًا يحاول الاحتجاب خلف نظراتهم التي يجتهدون في أن تأخذ طابع الجدية الصارمة، يشي هذا البريق بأنهم على ثقة من أنّ الحاج عزُّوز سوف يسلقهم بلسان السخرية الشبيه بالصّنفرة، بل ها هي ذي آذانهم قد تدلّت لـ خجل كأبناء السبيل البائسين، إذ يُنصتون لتقريع وليّ نعمتهم وها هو ذا يستشيط غضبًا من هذه اللهجة الغشيمة التي تريد تحميله المسئولية وحده عمّا حدث، يمسح شاربه ويُتَفْتِف بعد إشعال سيجارة مارلبورو، يفشخ حنكه عن بسمة خشنة شاحبة

مُسدّدًا بصره إلى آخر مَنْ تحدّث فوجده واحدًا من أنصاف القوالب الذين أصبح لهم كيان في البلد:

- «معك حق يا عبد الرشيد!.. أهل بلدتنا ياما تلقوا الصّفع والرّكل من عسكر الحكومة وموظفيها وجباة ضرائبها بشكل أفظع مما تلقوه من عسكر الاحتلال الأجنبي! سبحان العاطي! اليوم يطول لسانهم على العمدة يحمّلونه مسئولية السلعوّة!.. إيّاك تظنّ أن العمدة سيحمل البندقية ويطارد السلعوة بنفسه؟! الشملول فيكم يُريني شطارته!».

أصبح من المألوف أن تجد على المصاطب وفي الدكاكين من يتحلّق حوله القوم إذ هو يحكي لهم كيف طاردته السلعوّة وكيف نجّاهُ الله منها بمعجزة وأعجوبة؛ يقع الجميع في عرضه طالبين منه- بشغف عظيم- أن يصف لهم شكل السلعوة وكيف نجّاه الله منها بالتفصيل، عندئذ يُصيبُه الوجَل ثم التردُّد ثم الحيرة المضطربة، ثم يفتعل لهجة الكبار حين يعمدون إلى تبسيط الأمور الخطرة:

- إنها.. مجرد كلب.. إلا أنّ قدميه الأماميتين أقصر قليلاً من الخلفيتين فتظهر كأنها كلب محني مكسور الظهر.. كما أنها طويلة الأذنين كبيرة الرأس.. نعم.. لا بُدّ أن تكون كبيرة الرأس.. وهي لا تعرف التفاهم!..

www.alkottob.com

تهجم عليك تنشب أظافرها في ثيابك وأنيابها في لحم وجهك واقفة على قدميها فتُوقعك على ظهرك فتقفز فوقك تهبرك من الكتف من الفخذ من أيّ مكان فيه لحم طري.. وفي لمح البصر لا تجدها!».

كعادة الأخطار المروّعة حين نتراخى في مواجهتها قبل تفاقُمها ونكتفي بترقُّب أنبائها- باتت السلعوّة ترتع في ربوع بلدتنا بكل جبروت وحريّة وانطلاق، تسكن داخل الصدور والأفئدة، يظل الناس ساهرين طوال الليل فوق الأسطح وعلى المصاطب وأمام الدكاكين وعلى شطآن الترع والمصارف مُدَجّجين بأسلحة لا جدوى من حملها مادامت القلوب المرتعدة لا تضخ في السواعد والأيدي سوى الرعشة والتخاذل والصّمم وانحسار البصر، والخَوَر؛ في طلعة النهار يتّضح أنّ زريبة قد بقرتْ بطون مواشيها، أن عشة دجاج بأكملها قد اختفت، أنّ طفلاً رضيعًا اختُطف من حضن أمه الراقدة به في حوش الدار، أن كلبة يزيد البرلسي ابن بهانة الهفتانة هي الكلبة الوحيدة المحترمة الشجاعة، حيث لم يسمع الجميع صوتًا من كلاب البلدة إلا صوتها وحده قد ركبه ألف عفريت، وأن الجهة الشرقية التي فرضت عليها حمايتها- وفيها بيت العمدة وعائلته- لم تحدث فيها حوادث، دخلت بلدتنا لأول مرّة في تاريخها

صفحات الحوادث في الصحف، وظهَر ناسٌ من أهلها على شاشة التليفزيون يستعرضون جراحهم وعاهاتهم التي نعرف جميعًا أنها سابقة على ظُهور السلعوّة، بل أصبحنا نحن يا أولاد البلدة ومسئولي الأمن فيها نعرف أخبار خطف وقتل ونهش لم نكن عرفناها بالأمس زمن حدوثها نظرًا لكثرة ما يمكن أن يُلهينا من الكثير مما يحدث في جهات أخرى من البلدة.

في تلك الليلة الليلاء كان الذُّعر يُرافق الإنسان إلى المطبخ ودورة المياه والسّرير، يصرُخ الواحد لدى اقتراب أيّ ظلٍّ أو قيام هبّة ريح، كل كلاب البلدة الخسيسة الموالية لأصحابها فحسب كانت في تلك الليلة تأخذ في ظلال الدور والأشجار شكل السلعوة إذ يتضاعف حجم ظلها فينكرها أصحابها.. إلا كلبة يزيد بن بهانة كانت على طول الليل والنهار واضحة، مميزة بصوتها الخشن القريب من الزئير وبحجمها الفتيّ القريب من حجم المهرة وبلونها الأصفر المموّه بالبُنّي الضارب إلى البنفسجي، تنطرح فوق كوم السّباخ تحت الجميزة أمام دار الحاج عزوز، نائمة على جنبها حيث تدبُّ الحركة والحياة فيما بين ساقيها بستة جِراء لطاف ظراف خَفيفي الظّلّ بصحة جيدة، تنتفض نشاطًا وبهجة بلقاء الحياة، ألوانها تتقاسم الأبيض والأسود بطريقة عجيبة حيث يستقلُّ كلُّ لون بكلب أو أكثر ثم يشتركان مَعًا في كلب أو أكثر؛ يتسابقون إلى أثدائها

www.alkottob.com

المتدلّية؛ تستسلم لهم في لَذَّة فائقة تتَّضح على ملامحها النشوانة وهي مغمضة العينين سابحة في الملكوت وستة أفْواه تمصّ في أثدائها بنَزَق وعُنف يهزُّها فتمتصُّ الهزهزةَ بنفس اللَّذَّة التي امتصّت بها هزهزة الكلب الأرقط الصايع وهو يعشرها على الملأ في وضح النهار ذات يوم مشهود. مع ذلك ما تكاد أذنها تلتقط نأمة أو أقل حركة حتى تنتفض متحفّزة تزأر مُكَشّرةً عن أنيابها دون أن تُزْعجَ الرُّضَع؛ أمَّا إنْ تأكَّد لها أنَّ ثمة حركةً لغريب مجهول وطئت قدمُه أرضَ البلدة أو أنَّ طيف عزرائيل يحوم حول ديارها فإنها حينئذ تهبُّ في الحال واقفة مُطَرْطقَةً أذنيها لبرهة، محملقةً في الأفق البعيد، قد تعوي برُعب وفجيعة من رَهْبَة طيف عزرائيل، قد تُهَوْهو لفترة كأنها تذيع بيانًا شديد اللّهجة تُلقي به الرُّعْبَ فيمن تشمُّ رائحته؛ قد تكتفي بذلك عائدةً إلى ضجعتها طارحة جسدها كوليمة لجرائها، وقد تُغادرُهُم فجأةً في هَرْوَلة سرعان ما تتطوَّر إلى جَرْي في جَرْي حيث تعبُر الجسر العتيق وتقطع شاطئ المصرف من أول البنايات إلى آخرها رائحةً جائيةً تتشمَّم الأرض حيثما وقفت، ثم تروح توزِّع قطرات من بولها على ناصية كل مدخل من مداخل البلدة لتكون رائحة بولها بمثابة لافتات تعلن أبناء جنسها من جميع الفصائل أنَّ هذه المساحة الشاسعة هي مملكتها وحدها فمَنْ يقربها سيَلْقَى سُوءَ المصير؛ ولربما

تأخَّرَتْ في الخلاء تنهش بصوتها في عباءة الليل السوداء حتى تهلهلها وتظلُّ به حتى لا يبقَى على جسده سوى ثيابه الداخلية البيضاء فتقفل عائدة في تطامن وهي موقنة بأن صاحبها يزيد بن بهانة قد بعث بمن أتى له بالجراء لتبييتهم في عشَّة لصق محلّه من الخلف، المطلّ على المزارع التعيسة، تتَّجه تلقائيًا إلى العشّة يحدوها شوقٌ عارمٌ إلى حضن عيالها ومَصّ أفواههم لأثدائها.

في تلك الليلة اللَّيْلاء حَضَر الرجال من وُجوه الأعيان بعد صلاة العشاء. امتلأت غُرْفة الصالون عن آخرها فجيءَ بكراسي السُفرة على بابي الصالون المتصلين بالشرفة الدائرية، جيءَ بالشاي الأخضر، ثم أباريق القهوة العربية في سَيْل لا ينقطع. صاروا يتناقشون في حمية وحماسة وشعور بالخطورة، يُقدّمون الاقتراحات، ثم يُعدّلونها ثم يُهملونها بعد استهيافها، والليل يوغل في التقدُّم، وصوت كلبة يزيد قد اختفَى، وهو أمر لاحَظَهُ العُمدة ونبَّهني إليه في كثير من القلق.

على أنَّ شيئًا ما، كان قد حَدَثَ في غَفْلة منَّا، لم نكن نعرف أنَّ نسوان الدار أجهزن في ذلك اليوم على ما تَبَقَّى في برنية السمن من إدام، فلم يبقَ فيها سوى لحوسات متجلّطة ملتصقة بجدران البَرْنيَّة، فوضَعْنَها في الشُرفة الخلفيَّة تحت لهب

www.alkottob.com

الشمس تتلقّى وَهَج الظهيرة فيسخن الفخار فيسيح ما علق به من سمن متجلّط ليمكن بعد ذلك سكبُه في إناء منبسط؛ لكنهنَّ نَسُوها تمامًا فبقيت في مكانها على بلاط الشرفة؛ حلَّ المساء فأُضيئَت اللَّمبة الكهربائيَّة البطيخة المثبَّتة في سَقْف كُلّ شُرفة. كلبة يزيد تعتبر الدار دارها، ليست محتاجةً إلى تلصُّص أو توجُّس بل تدخُل وتفعل ما تشاء في ثقة تامَّة قد لا يتمتَّع بها الحاجّ عزُّوز نفسه؛ صعدت إلى الشرفة منجذبة برائحة السمن الفوَّاحة التي تحمل في باطنها رائحة لحم الجواميس والأبقار والرُّوث الحميم. بحكم العشرة الطويلة مع أهل الدار أيقنت الكلبة أنَّ هذه البرنية ما دامت قد أهملت هكذا إلى هذا الوقت بغطاء من قماشة طيَّرها الهواء إلى بعيد فإنها إذن لمباحة لها، فلم تتردَّد. البرنيَّة إناء من الفخَّار يُشبه الكرة الأرضية، ذو حَلْق ضيّق يسهُل سَدُّه بغطاء مُحْكَم، كما يسهُل الغَرْفُ منه بالمغرفة دونما هدر يذكر، بطنُه دائريَّةٌ واسعة. اتَّسَعَ حَلْقُ البرنية لبوز الكلبة وكان الإدام شهيًّا، وبخاصَّة لمرضع مثلها يطلب جسدُها هذا المَدد على وجه التحديد؛ جعلت تلعق الجدار الداخلي للحَلْق حتى نظَّفَتْهُ تمامًا، جذبَها ما تحت الحلْق ممَّا عاد وتجمَّد قليلاً فصار عِزَّ الطَّلَب للجائع، صارت من فَرْط الابتهاج بالوليمة تكاد تتراقصُ وهي تلفُّ تلقائيًّا لتتمكَّن من الْتقاط ما علق بجدار البرنيَّة الدائريّ المنبعج لبطن البرنية

التي ارتجَّت على الأرض، مالت للوقوع على جنبها فانزلقت رأس الكلبة بالكامل إلى داخل البرنية، فصارت من فَرْط السرور تكاد تغنّي وهي تلحس، وفضاء البرنيَّة يُرَجِّعُ أصداء حمحمتها وأصوات غبطتها؛ هكذا وصفتها الطفلة رَضْوَى بنت الشغَّالة التي تخدم في دار العُمدة، ولكنها لم تستطع الربط بين ما رأته وما جرَى إلاَّ بعد أن جَرَى ما جَرَى. أجهزت الكلبةُ على كلّ ما في قاع البرنيَّة وجُدرانها، غسلتها بلُعابها وتلمَّظت. ما لم تَرَهُ الطفلة رضوى أنَّ الكلبة حين أرادت إخراج رأسها من عُنق البرنية كان ذلك من أول المستحيلات. رفعت الكلبة رأسها بالبرنيَّة الثقيلة المنبعجة البطن، راحت تلفُّ حول نفسها تتخبَّط في الظلام بحثًا عن طريق؛ سمعت الرجال يتحدَّثون في الصالون، ركضت نحو مصدر الصوت في الممر الدائرى.

تجمَّد الرجال القريبون من الشرفة لوهلة خاطفة ثم راحت الرعدة تؤرجحُهم فيطلقون عواء كعواء الكلاب عند رؤيتها لطيف عزرائيل. ظهرت الكلبة أمامهم، رأسها لابس في برنيَّة السمن التي بدت لحظتذاك رأسَ حيوان أسطوريّ شرس غبيّ مضطرب متعفّرت ينطح من يلتقيه. هبَّ الجميع صارخين من فزع كالثكالى:

- «السلعوة! السلعوة!».

اختلط الصراخ بالعويل؛ تخبَّط الرجال في بعضهم؛ في

www.alkottob.com

الكراسي، في الترابيزات، في الأبواب، في الحوائط، ومنهم من وَقَعَ مغشيًا عليه ومن قفز من الشباك إلى الخلاء. كان الحاجّ عزُّوز العمدة أشدَّ الناس فزعًا وصراخًا.

- «السلعوة قاصدة بيت العمدة! اضرب يا غفير في المليان! اضرب يا حيوان مستنّي إيه؟! السلعوّة حتاكلنا وزمانها كلت كلبة يزيد!»

وكلبة يزيد شعرت بمزيد من الاضطراب والذُّعر فهاجت هياجًا شنيعًا، ضاقت أخلاقها من هذه المؤامرة الكونية التي وقعت في حبائلها، صارت تتقافز بعُنف وعدوانية وشراسة كيفما اتفق، تريد النفاذ بجلدها من هذه الثورة المروّعة، لكنها ما كادت تصل إلى كوم السباخ تحت الجميزة حتى اصطادتها أول رصاصة من بندقية شيخ الغفر نزولاً على أمر العمدة؛ ثم طالتها الرصاصة الثانية فاخترقت مؤخرتها واخترقت قعر البرنية الفخار، ارتمت الكلبة تنْزف النَّزْع الأخير في حياتها.

من صلاة الفجر خرج المصلون يزأطون يفخرون بما حدث؛ مع ذلك لم يجرؤ واحد منهم- حتى شيخ الغفر ببندقيته- على الاقتراب من كوم السباخ ظنًّا منهم أن هذا الحيوان الخرافي الغدّار لا بُدَّ أن يكون ماكرًا كالثعلب يصطنع الموت حتى ينصرف عنه مطاردوه..

في الصباح كنتُ أشرب الشاي مع الحاج عزوز في محاولة لتربيط

الجأش واسترداد الهدوء للأعصاب بعد ليلة سافلة. شاهدنا العيال الصغار يتجمّعون فوق كوم السباخ في صخب هائل، بكل جرأة يضربونها بأقدامهم في بطنها ساخرين:

- «سلعوّة؟ سلامات يا سلعوّة! قال سلعوّة قال!»

وأحد العيال يكسر بقايا البرنيَّة الفخّارية، ثم يهتف بألم طفولي مؤثر:

- «دي كلبة يزيد يا عيال! كلبة يزيد بن بهانة الهفتانة!»

راحت أفرع الشجر وأركان الشرفات تردد أصداء هتاف العيال الذين بدوا كأنهم سعداء باكتشاف واحدة من أكاذيب الكبار: كلبة يزيد يا عيال! كلبة يزيد بن بهانة الهفتانة! هههأوأوأو يا سلعوّة!»

لحظتها دخلت علينا الحاجة نور زوج الحاج عزوز:

- «ما تعلَمْش يا حاجّ؟ مش البنت رَضْوَى شافت...»

وحكت الحكاية..

خُسوفٌ كامل حَلَّ بوجْه العُمدة أحاله إلى قبضة من خشب متفحّم بعد حريق مروّع كانت بقايا لهيبه لا تزال مُتّقدةً في عينيه، إذْ يتطاير منها الشَّرَرُ الأحمر المزرق. هَبَّ واقفًا يُصفّق كفًا على كفٍّ: «اللّهُمَّ لا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم. سبحانك إني كنتُ من الظالمين!»

مشى نحو جدار الشرفة كالماشي في جنازة؛ صرخ في العيال

www.alkottob.com

بحدَّة، لَعَنَ آباء الَّذين خلَّفوهم، أمَرَهُم بالانصراف وإلا نَزَلَ فملَّص آذانهم وربما قطع رقابهم؛ فرّ العيال كسرب من عصافير مذعورة. ارتكن العمدة بمرفقيه على حافَّة الجدار؛ ظهرت الكلبة منطرحةً على ظَهْرها رافعةً سيقانها الأربع. أغرقني منظر العُمدة في كآبة لزجة من حرارة غيظ كظيم. جعلتُ أبحث في رأسي عن كلمات مناسبة لعلّها تفلح في التخفيف عنه وعنّي. ولكنَّ المنظر داهمَنا، اغتال البقية الباقية من أعصابنا: كان الجراء الستةُ قد ظَهَروا من خلف الدَّار يتقافزون في شقاوة طفولية نزقة مُغامِرة تتحدَّى مُرورَ الدَّوابّ والسيارات على الطريق. كان واضحًا أنهم قد عثَروا أخيرًا على أمّهم فركضوا نحوها في ابتهاج عظيم يتشمَّمون آثارَها على الأرض، ربما للذَّة إضافية في كلِّ خُطوة مع أنهم فى الطريق إليها. ها هي ذي راقدة في استقبالهم بوضْع مستباح. اندفع الجراء الستة برشاقة غاية في الجمال، انكفأ كلٌّ منهم على ثَدْي فالتقمه وانخرط في مَصٍّ ومَضْغ وبَلْع. دقائقُ طويلةٌ مَرَّت والجراء يرضعون من أثداء أمّهم القتيلة؛ كان من الواضح- بما لا يدع أيَّ منفذ للشك- أنَّ هنالك بالفعل رحيقًا حيويًّا يرضعه الكلاب، وإلاَّ ما استمرُّوا كل هذه الدقائق في اندماج الجائع حين يأكل بشهية وشراهة، فيما بطونهم تعلو وتهبط في استقبال ما يرد إليها من طعام. هل هو وَهْمٌ ما يُسَيْطِرُ على الجِراء الآن؟ أم أنَّ الإدام الذي

دفعَت الأمُّ حياتها ثمنًا له بقيَ حَيًّا في الجسد الميت حتى يصل إلى مُسْتَحِقّيه؟ علمُ ذلك عند ربّي؛ لكن الألم كان يقبض على قلبي، وكانت نهنهاتُ الحاج عزوز العمدة قد ارتفعت وتدفَّقَتْ بحرارة وحُرْقة بجعير مقهور كجعير اليتامَى البائسين.

www.alkottob.com

شريعة رزق كريم

كان الشيخ عبد المقصود أبو إسماعيل مجاورًا في الأزهر الشريف، لكنه ليس يملك أيَّ شيء على الإطلاق سوى الجلباب الذي يرتديه صيفًا وشتاءً ويغسله بيديه كلَّ خميس ويحتجز نَفْسَهُ في المسكن الداخليّ حتَّى يجفَّ قُربَ صلاة الجمعة، لا يتركه إلاَّ حينما يتعطَّف عليه واحد من تجار حَيّ الحسين الطيبين الَّذين يلتقيهم في غُدوّه ورواحه طوال النهار وشطرًا كبيرًا من الليل فيمنحه جلبابًا نصف قديم أو جديدًا أحيانًا، مع ذلك لا يفرّط في الجلباب القديم مهما اهترأ وساءت حاله، يسهر فيُفَصِّل منه لباسًا أو حتى منديلاً يقوم هو بتخييطه ورفيه بإبرة وخيط يحتفظ بهما في متاعه الخاصّ في الحجرة المشتركة، وهو عبارة عن صندوق صغير فيه خِرَقُه وأغراضه ومصحف وكتاب دلائل الخيرات وكتاب تفسير الأحلام لابن سيرين.

الشيخ عبد المقصود وصل إلى المجاورة في الأزهر الشريف بعد رحلة شاقَّة وعسيرة طولها مئات ألوف الأميال والأصبحة الكئيبة والليالي السُّود سَيْرًا على قدميه من مكان إلى مكان،

من بلد إلى بلد، لم يعرف الركوب طوال حياته مُطلَقًا، إنه لا يملك ثمن جرعة ماء، بله أن يدفع ثمنًا في ركوبة، من كتَّاب أبيه في قريتنا البعيدة في براري شمال الدلتا إلى المعهد الديني في الجامع الأحمدي بطنطا إلى الأزهر الشريف في القاهرة- لم يجد من ينفق عليه مليمًا واحدًا أو حتى يتعطَّف عليه بكلمة تشجيع أو عطف. في الإجازات الصيفيَّة في زَمَن الصِّبا كان يسرَح في الغيطان للتَّصييف، والتَّصييف في قريتنا معناهُ التجوُّل في الحقول بعد حصادها، لالْتقاط ما سقط من أيدي الحصَّادين أو احتجزته شُقوق الأرض من سُنبلات قمح أو فول أو ذُرة أو شعيرات قطن تخلَّفَتْ بين ألسنة اللوزات الجافة. ما يجمعه الشقي طوال النهار قد يتحوَّل إلى قليل من أرغفة خُبز أو ملاليم تنفع في الزَّنقة، ولا الْحَوْجَة للاشتغال نفرًا زراعيًا باليوميَّة يتحكَّم فيه الأنذال ويسخرون من تشَعْلُقه بحبال العلم والحلم بوسام الجبَّة والعمامة وهما- في نظرهم- بعيدان عن شوارب تعيس مثله.

دَرَّب الشيخ عبد المقصود نفسَهُ على الاستغناء تدريبًا ليس يُفلح فيه إلاَّ الكبار من أقطاب الصُّوفيَّة الزُّهَّاد، يكفيه في العام جلبابٌ وقميصٌ ولباس وصَرمة قديمة، يكفيه في اليوم طَقَّة واحدة يأكلها في عزّ اللَّيل لكيْ ينتهز دماغُه فرصة امتلاء بطنه فيستغرق في النوم العميق، أمَّا عند الصَّحو في الصباح فالأمور

www.alkottob.com

مقضيَّة كيفما اتفق، بكوب ماء، شفطة شاي، تمرة، كسرة من تلال خُبْز مقدَّد مما يُمنح إليه من زُوَّار القرافة يوم الخميس، لقد وَطَنَ النَّفْسَ على أنه إنْ حضر الخبز فإنَّ الملح أو أيَّ غموس يكون ضربًا من الدَّلَع الماسخ. وهكذا حين توَّج الله مشواره الذي أصَرَّ عليه بالانتظام في الدراسة بالأزهر الشريف. لم تستطع مغريات المدينة أن تلعب برأسه وتجرّه إلى الدناءة، فمن الدناءة في رأيه أن يترك الإنسان نفسه للشهوات تَقُودُه فتصرفه عن العلم، عن الكرامة، ولا بُدَّ في النهاية أن تُورده موارد التهلكة. ومن الذُّلّ في رأيه أن يطلب الإنسان رزقه من عَبْد مثله، فرزق الإنسان يكفله الخالق: «وفي السَّماء رِزْقُكُمْ وما تُوعَدُون» هكذا قال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم، أما الرِّزق الكريم فهو ما يجيئك دونما هدر لكرامتك أو جرح لإنسانيتك. هكذا تجيئه الهدوم وقت احتياجه إليها دون أن يطلبها، كان هناك دائمًا من لا يُرْضيه عُرْيُه الوشيك فيناديه في السِّرّ ويُعطيه المنحة الإلهية، جلابيب مخيطة جاهزة أو أقمشة ومعها ثمن خياطتها.

وفي جوار الأزهر الشريف والإمام الحسين كانت تصادفه الولائم المبذولة لأهل الله بالمجّان، ما عليك إلاَّ أن تحود على مائدة من موائد الرحمن تلك فتجلس وتسمِّي بسم الله الرحمن الرحيم وتأكل حتى تملأ بطنك مما لذَّ وطاب، إلا أنه لم يكن يحود، عقدة الذُّلّ والكرامة تشلُّه تمامًا، يروح ويجيء عدّة مرات، يُبصبص للأكل والآكلين كالذئب يبحث بين الآكلين عن أحَد يعرفه، فإنْ رآه ملتهيًا في الأكل فسوف ينبّهه بشكل شرعيٍّ، سيقول له من البُعد بصوت عال:

- «السلام عليكم! مساء الخير يا فلان»

عندئذ سيرفع فلانٌ رأسه عن الأكل ليرَى مَنْ ذا الذي ناداه، ومن قبيل الذوق والمجاملة الاعتيادية سيقول له:

- «أهلاً وسهلاً تفضَّل الأكل يا رجل».

هكذا يكون قد تلقَّى التأشيرة على جواز المرور فيندسُّ بين المناكب والأرداف ويتصرَّف، وإنه لخبير بكيفية التعامل مع ما تحتويه المائدة. الإكادة أنه كُلما ألقى السلام على أحَد يلتحق بمائدة من موائد الرحمن يطير سلامُه في الهواء بَددًا تحت قرع الملاعق وطَحْن الأسنان وخُوار البَشر وهُم يأكلون في حالة حيوانيَّة صرفة، وحتى إنْ سَمِعَ مَنْ ناداهُ صوتَ ندائه فإنَّهُ يكتفي بالتَّلويح له بالتحية بيد متشنّجة ملوَّثة دون أن ينظر إليه. ولقد أنفق الشيخ عبد المقصود زمنًا طويلاً وتجارب عدَّة حتى تأكد من حقيقة أنه لا سلام على طعام، أن الإنسان متى غرق في بحر الأكل صعب انتشالُه إلا أنْ يطْفو لوحده على سطح التخمة. فامتنع عن إلقاء السلام على أيّ مائدة، بل اعتاد الموقف المضاد مع ما في إعادة ضبط النفس على السلوك

www.alkottob.com

المضادّ من عَناء وتعذيب للنفس يصعُب احتماله إلاّ على مثل هذه النفس اللوّامة الحرنانة المقفولة على محفوظات شَاخَتْ وانتهَى زمانُها وبطل مفعولها فباتتْ أشبه بنورج يجرُّه البغال وَسْطَ جُرْنٍ ممتلئ بماكينات كهربائية حديثة تتلقَّى أعواد القمح بسنابلِهَا فيتدفَّق الْحَبُّ من فرجة والتِّبْنُ من فرجة أخرى بحيث تنجز محصول عشرة أفدنة في سويعات قليلة.

اعتاد الشيخ عبد المقصود أن يقطع على نفسه الطريق عند رؤيته لأية مائدة فيهرب إلى طريق جانبي، وحيث كان بعض زملائه «الملحلحين» يتقرَّبون إلى زملائهم الكبار المشهورين خارج نطاق الجامع الأزهر بين العامَّة والتجَّار، أولئك الذين يدعونهم لإحياء الختمات وفاءً لنذور أو تكفيرًا عن ذنوب فيعطف الشيخ المدعو على زميلَيْن يختارهما ليشاركاهُ الليلة، حيث يجلس ثلاثتُهم في حجرة استقبال في بيت محترم من صبيحة ربنا إلى ما شاء الله من الليل لكيْ يختموا قراءة القرآن كلّه لإضفاء البركات على هذا المكان وأهله، خلال ذلك ينالهم ثلاث وجبات سمينات من لحم ضأن أو أوز أو بطّ، مع أناجِر الفتَّة والمَرَق، وحلوى وفاكهة لم يسمع أحدٌ منهم باسْمها من قبل. فوق ذلك كُلّه يأخذون نقودًا، بضعة قروش يُوَزّعها كبيرُهم عليهم بغير عدل ولا قسطاس، إنما لا بأس في ذلك. من هنا يتلحلح الزملاء المتودّكون في التودُّد إلى أمثال هؤلاء

الشيوخ لينالوا من العزّ جانبًا، بعد طول جفاف وحرقة قلب بجراية الأزهر، التي برغم شحها غير دائمة. إلا أن الشيخ عبد المقصود لم يفلح في ذلك أبدًا، لقد حاول مرارًا وتكرارًا في الواقع لكنه يفاجأ دائما بشئ حاد وصلب كبقايا جذور الحطب والحلفاء والنباتات الشيطانية يقف في حلقه إن داست فوقه الكلمات مات، فيكف في الحال عن محاولة المجاملة ولا يبقى منتصبًا في ذهنه ماثلا في بصيرته إلا كونه يتودد من أجل الاسترزاق والمنفعة لا من أجل الحب والإنسانية، سيما وأنه على يقين بأن محاولته للتودد حتى وإن كانت صادقة وخالصة لوجه الله والإنسانية فإن المتودد إليه لن يتلقاها بمثل هذا القبول إذ إن نفسه التي فسدت باتت تلون كل مجاملة تأتيه وتفسرها بأنها استدرار للعطف والتربح من العلاقات.. وهكذا قامت بنية وجمهرة الزملاء سدود وإن كانت وهمية إلا أنها أشد فاعلية في عزله مما لو كانت سدودًا حقيقية كسد مأرب.

على أن جوعًا وحشيًا ربما بأثر رجعي قد انقضّ على الشيخ عبد المقصود ذات يوم حار عصيب، لعله كان يوم موسم شعبي، أغلب ظنه أنه احتفال بيوم عاشوراء وهو تقليد رسَّخَهُ الفاطميُّون في مصر، حيث يحتفل المسلون المصريون بذبح الذبائح وطبخ نوع من الحلوى تُسَمَّى بالعاشورة مصنوعة من اللبن والأرز المدشوش، ولا بُدَّ لكل بيت مسلم أن يطبخ لحمًا في

www.alkottob.com

ذلك اليوم، يومها امتلأ حيُّ الأزهر والحسين بروائح الشواء الشهية منبعثة، ليس من المطاعم ومحلات الكباب فحسب بل من جميع نوافذ البيوت في الباطليَّة والغُورية والعطوف وخان الخليلي وكفر الطماعين، الفضاء كلُّه شواء في شواء يستفزُّ في الإنسان غريزة الافتراس المقموعة فيه مؤقتًا، تجعل الأسنان تضرس وتكزّ واللعاب يسيل والبطون تعوي، الناس على أرصفة المطاعم ينهشون في شرايح وريش، الأسياخ طالعة من قلب النّيران تُغري الأكولين المُوسرين وتكيد للسَّابلة المعدمين. لكن حتى السابلة المعدمون في هذا اليوم لم يكونوا مُعْدَمين، يكفي أنْ يفُوتَ الواحد منهم على باب أيّ مسجد فيمُدّ يده لمن يُوزّعون أرغفة خُبْز محشوَّة باللحم، وللمتسوّل أن يكرّر مَدَّ يده عند كل مسجد حتى يشبع ويدَّخر للغد أو لذويه من العجزة والمساكين. لكنْ كيف يتأتّى لشيخ أزهريٍّ على وشك أن ينال شهادة العالمية أن يمد يده كالمتسولين ليأخذ رغيفًا حتى وإن كان محشوًا بالجواهر؟ إنه لمن العار أن يفعل. ماذا يكون منظره في نَظَر أهل بلدته إن جاءت الطوبة في المعطوبة ورآه أحدٌ منهم فنشر الخبر في بلدته؟ سيقولون: طبعًا وهل كان لمتسوّل مثله أن يحمل شرف العلم ووسام الجبة والعمامة؟ بذلك تضيع رحلتُه هباءً، سيعود حاملاً شهادةً عُليا تنوء بحملها شخصية وَضيعَة مهزوزة في نَظَر القوم مخصومًا منها الاحترام

والتقدير والمصداقيَّة، فكأننا يا بدر لا رُحْنَا ولا جينا، وكأنك يا أبا زيت ما غذيت.. لا.. لا..لا.. ديك أمّ هذه البطن القَذِرَة، كلّ هذا المهرجان الفاتح للشهية إنْ هُوَ إلا مهرجانٌ للحيوانية البدائيَّة المفترسة قبل أن يتحضَّر الإنسان بالدّين والعلم ويعرف أنه يأكل ليعيش وليس يعيش ليأكل. إنْ هي إلا سُوَيعات قليلة وينفَضّ هذا المهرجان كأنْ لم يكن. مهمَّة الشيخ عبد المقصود الآن أن يهرب من هذه الحمّى الافتراسية الصاخبة، آه لو ينام، النوم الآن حُلم حياته، لن يُنسيه ألم الجوع وقَرص البطن وعُواء المصارين إلاّ النوم، النوم بعُمق يقارب الموت، ولكنْ كيف؟ ذلك شبه مستحيل، فالحجرة المشتركة التى يبيت فيها مع زميلَيْن أحدهما من اليمن والآخر من الصومال تفخُّ صَهْدًا وزخمًا، زميلاهُ ثرثاران كماكينتَيْن للحفظ والتسميع لا تكفّان عن إصدار الصرير والقرقعة، النوم فيها غير متاح في عزّ الليل فما بالُك بجهارة الضحى؟ آه يا للإلهام، يا لها من فكرة طيبة: الصّعود إلى الشرفة الثالثة من المئذنة البحرية، إنها مَلْقَف هواء لا مثيلَ له في مصر بأكملها. على الأرض الرَّطبة يمتدّ متوسّدًا إحدى ذراعيه ليغيبَ في النوم العميق قبل أن يُكمل قراءة الفاتحة، وعَصْفُ الهواء العبقريّ سيرفعه إلى السماوات السبع يُنسيه جميع الشهوات اللّعينة.

www.alkottob.com

لحظتذاك كان ثلاثةٌ من زملائه الموسرين يُريدون الاحتفال بموسم عاشوراء كبقيَّة القوم، قرّروا الاشتراك في الإنفاق على غَدْوَة مخصوصة محترمة تليق بهذه المناسبة المفترجة، ذهبوا إلى جزار شهير، قطع لهم ثلاثة أرطال من الضَّأن المشفَّى، خرطها فوق ورقة سميكة مفروشة بالبقدونس، خرط فوقها رطلاً من الطماطم، ومثله من شرائح البصل، والقليل من الفلفل والمشهيات العطرية، ثم طوَى أطراف الورقة فوقها بإحكام، دفعوا بها إلى الفُرن العموميّ حتى استَوَت فسحبوها، سحبوا كذلك تَلاً من أرغفة الخبز البلدى الساخن، وقرطاسًا من الطرشي.. عبَّئُوا كل ذلك في جعبة كشيكارة الأسمنت، وقفوا يتشاوَرُون في أمر المكان الذي يأكلون فيه هذه الوليمة في أمان بحيث يضمنون أن طفيليًّا من الزملاء لن يرمي جثته عليهم ويشاركهم في أكلها، هنا طقَّت الفكرة العبقريَّة في دماغ أحدهم فنفَّذوها على الفور، صعدوا بالوليمة إلى الشرفة الثالثة من المئذنة البحرية حيث لا أحد على الإطلاق يتوقَّع وجودهم فيها أو حتى يشم رائحتهم، من شدَّة اللَّهفة فرشوا كيفما اتفق قُربَ فتحة السلّم، شرعوا يأكلون.

الشيخ عبد المقصود أصابه ذهول، لقد هرب من مهرجان الافتراس الشهيّ فإذا به يُلاحقه فوق المئذنة حقيقةً لا مجازًا!! إنَّ الأمر لتَحَدٍّ واضح يُريد أن يُعَذّبه ويهزم كبرياءه، راح في

رقدته في الجانب البحري يُنصت إلى عملية المضغ والهمهمة فيما ينتفض جسده خوفًا أو جوعًا ليس يدري.. غصبًا عنه تنحنح: إحم.. فزع الإخوة الثلاثة الآكلون؛ تَوَقَّفُوا عن المضغ فاستمعوا إلى صوت تنفُّس خشن على الجانب الآخَر للشرفة. قام ثلاثتُهم، لَفُّوا، فُوجِئُوا بالراقد يتوسَّد ذراعه وينتفض من شدة الاعياء، وارتفعت صيحاتهم المندهشة:

- «الشيخ عبد المقصود؟ يا للنصيب الغلاَّب! قم يا شيخ! تعال! اللقمة ليست تنادي آكلها فحسب بل وتذهب إليه في عقر داره أحيانا».

شَدُّوه من ذراعه ليقف، أوْسَعُوا له مكانًا بينهم، حاولوا استئناف الشهية لكن الضحك الهستيري عطَّلهم تمامًا، مع أنهم كفُّوا عن النظر إلى بعضهم البعض درءًا لمسبِّبات الضحك إلا أنَّ اللُّقَيْمات كانت تكاد تنطرد خارج الأفواه المقهورة على الضحك الهستيرى، الضحك من أنفسهم ربما، مما دبَّروا له وأحاطوه بالسّريَّة والكتمان، حيث لا تدبير إلا ما قد وضعه المدبِّر الأعظم؛ ولكنَّ الشيخ عبد المقصود كان هو الوحيد الذي قد راح يأكل بشهية فائقة، فلقد رأى أنَّ الأكل يُعْتَبر أكله هو، أنَّ هذه الوليمة قد أُعِدَّت بإلهام من الله بواسطة هؤلاء الزملاء لكي تجيء لحدّ عنده في هذا المكان البعيد فيما بين السماء والأرض، كان كأنه صاحب الوليمة وهم الضيوف.

www.alkottob.com

إلاَّ أنه بعد أن شبع تمامًا، ربما لأول مرّة في حياته، ملّس بيده على بطنه، وإشراقة طازجة سطعت على وجهه وَشَتْ بأنه استوعب درسًا عميقًا جدًّا، فبدا كأنه يستدرك على نفسه إذ يقول في نبرة امتنان وورع:

- «ولكن مع ذلك يا إخوان فإنَّ الرزق لا بُدَّ له من سَعْيٍ ولو.. بالنحنحة!».

ضحكوا وأومَئُوا برءوسهم مُؤَيِّدين، ثم حَمْلَقُوا فيه في استعبار.

علاقة مشبوهة

لأنَّ الأمر في البداية لم يكن واضحًا تمامًا في مخيّلتي فقد تعيَّن عليَّ أن أحتمل تَرْيقَة الأصدقاء، وملاحظات الثقلاء ممن يطيب لهم إثبات دقتهم في الملاحظة: حتى المقربون منّي في محيط العمل كانت تلوح في أعينهم بوارق نظرات غير خالصة من الخبث بل لعلّها ملوّثة بلزوجة اتهام خفي.

العَجَبُ العُجاب أنّ هؤلاء وأولئك لم أجدْ لهم عندي ثمة من روادع: فأنا نفسي لم أجد لسلوكي ذاك تفسيرًا مُقْنعًا على الأقل لي: وفي نفس الوقت لا أجد مفرًا من الاستمرار فيه بغير تحفُّظات على الإطلاق!

أبدًا لم يكن لي ثمة من غرض خبيث.

ولكنّ الخبر قد نضج واستوى، وذهب إلى أذن زوجي، لا أدري كيف تسرّب إليها: ولكنني لاحظتُ أنّ تكشيرة جَهْمة بدأتْ تُعْقَدُ ما بين حاجبيها. كانت تكشيرة لطيفة في البداية ذكّرتني بأيام شبابنا الغضّ في مقتبل الحياة الزوجية حينما كان هناك مبرر مفهوم للغيرة: أما اليوم وقد صار لنا أحفاد، وصرنا معًا على باب الله في المسائل إياها، فليس من المنطقي ولا هو من المعقول

www.alkottob.com

أن تستمرَّ تكشيرتها كلَّ هذا الوقت الطويل بسبب شائعة تافهة صنع منها الخبثاء حَدُّوتة يشغلون بها فراغ أيامهم وخلو أذهانهم.

وأصل الحكاية أنني غاليتُ في إظهار تعاطفي مع سيدة من إقليم الفيوم اعتادت أن تفرش على الرصيف المقابل لمبنى المؤسسة التى أعمل بها، تبيع الجبن القريش، والزبدة، والفطير المشلتت السخن دائمًا الذى يتطابق مع الفطير الأصيل القادم من بلدتنا، لا يقلُّ عنه دسامة ولا دقة صنعة، وكثيرًا ما تأتي بقفص مملوء بزغاليل الحمام.

هي امرأة عجوز في حوالي الخمسين من عمرها، وجهها على درجة عالية من الجمال الفلاحي الصريح الصارخ لكنه لا يعرف اللَّوَع وبريء من كلِّ دنس. ثم إنها جادَّة صارمة الملامح لا تعرف التحديق في العيون، خجولة، خفيضة الصوت حاسمة حازمة باترة في حوارها، كلمة وردّ غطاها. لا فصال عندها، بل إنَّ أيَّ زبون في عينيه حصوة ملح ما إنْ يَرَ جودة بضاعتها حتى ينكسف على دمه ويتجنب الفصال. ولهذا فإن لفيفًا من كبار موظَّفي البنك المجاور لمؤسستنا يدفعون لها ثمن الزغاليل عند مرورهم عليها في الصباح ويتركونها عندها ليأخذوها عند خروجهم من العمل، فتلتزم هي بذلك وتُغطِّي الزغاليل وتركن القفص على جنب بعيدًا عن مجال العرض، ومع ذلك لا

تسلم من العيون المتلصصة، وكثيرًا ما أغراها الكثيرون بأسعار مُضاعَفة لكي تفُضَّ البيع السابق وتبيع لهم، لكنها لا تقبل ذلك مطلقًا وتقول: بارك الله فيما رزق. فإنْ ألَحَّ عليها ملحاح صدَّته بردود مُفْحِمة على بساطتها فلا يغفر لها الملحاح كسفتها له، ولولا أنه محتاج لبضاعتها النظيفة المضمونة ومقدر في أعماق صدره لأمانتها وانضباط أخلاقها لحاربها ومنعها من الفرش ها هنا؛ والواقع أن البعض- لتَغَلْغُل الشَّرِّ فيه- حاول مضايقتها. لكنها وجدت أنصارًا من كبار الناس يحمونها، وكنتُ أنا على رأسهم. هل كنتُ أطمع في بضاعتها مقابل أسعار أقلَّ من غيري؟ لا على الإطلاق، بل كنتُ أتفنَّن في استقطاب الفُرَص التي تُتيح لي أنْ أضاعف لها الأجر. على أنَّ ما استفزَّ الجميع هو أنني غالَيْتُ في التَّوَدُّد إليها بصورة ملحوظة حقًّا، لدرجة أنني لم أكُنْ أتورَّع عن الجلوس بجوارها فوق صندوق لدقائق تطول إلى ثلث أو ربع ساعة أحيانًا، أتمعن في ملامحها الصافية وأتشرَّب حديثها الحميم، شاعرًا بأنَّ وشائج قوية جدًّا تربطني بها وتحفزني على التباسط معها لأقصى الحدود. وأكاد أجعل من نفسي حارسًا عليها، أنفعل في الدفاع عنها بحماسة، وإذا رأيتها حزينة باكية يحترق دمي حُزنًا عليها!!

وذات صبح رأيتُها مكفهرَّة يبُكُّ الدم من ملامحها بسبب مضايقات شرطة المرافق، يومها مررتُ على دورة المياه قبل

www.alkottob.com

الذَّهاب إلى مكتبى، وفيما كنتُ أمشط شَعْرِي في مرآة الحوض أصابتْني صاعقة سمرتني في مكاني. كان وجهي في انفعاله صورة طبق الأصل من وجه الفيُومية: تذكَّرتُ في الحال أنَّ جميع أهلي كانوا يقولون لي إنني حين أنفعل يصير وجهي صُورةً من وجه جدتي لأمّي. فى الحال أشرق التفسير في رأسى: نعم! إنني إذن تعاطفتُ مع الفيومية لأنها صورة طبق الأصل من جدَّتي لأمّي، تلك التي كانت أهمّ مصادر الحنان في طفولتي وصباي.

واحد مصري

بين تلال جبل الدرَّاسة وظلالها القديمة المتداعية أقام صديقي سمكري السيارات ورشته فتبعه العشرات، فما لبثوا حتى أوجدوا تجمعًا صاخبًا يعجُّ بالحركة والضجيج المحبَّب لدى المصريين، وأقام صديقي غرزة ملحقة بورشته، عبارة عن خُصٍّ من مخلَّفات الخردة، يُديرها قهوجي نظيف. وقد أدمنت القَعْدة في هذه الغُرزة لساعات طويلة كلَّ يوم مسحورًا بهذه العينات من الأنماط الإنسانية الفريدة التي إن رأيتَها وأنتَ ابنُ القرن الواحد والعشرين تخيَّلتَها من بقايا عُصور مُوغلة في القِدَم، ولابد أنْ يُصيبك العجب العُجاب من سرّ استمرار هذه الكائنات إلى اليوم متكيفة مع مظاهر التقدم التي تحيط بها. في القَعْدة اليومية تخلقت صداقةٌ وطيدةٌ بيني وبين «أبو ميمي»، الذي كان من أقدم أصدقاء السمكرى. منظر أبو ميمى ينتمي إلى العصر المملوكي، بعمامته الدائرية الصعيدية الكالحة وجلبابه البلدي ذي الكُمّ الضيِّق، وفي قدميه حذاء من البلاستيك، تراهُ أحيانًا يقف في انتظار ابنه- طالب الإعدادية- الذي شبط في أتوبيس ومعه قفص فارغ سيَمْلَؤُه بأرغفة الخبز

www.alkottob.com

الساخن من فرن بعد محطتين، وتجده أحيانًا أخرى مقعيًا في مدخل ظلل على ناصية وأمامه سَبَت (سلة) من شرائح البوص فيها شروة بلح أمْهَات منتقاة بالواحدة وسوف ينتهي من بيعها في دقائق لعُمَّال الورش الذين يتغدَّون بالجبن القديم بالمشّ المعتق ومعه العنب أو البلح الرطب. هذه في الأصل شغلة زوجه أم ميمي، ولكنه لا يجد أي حرج في أن يحلّ محلها حتى تنتهي هي من غسيل الثياب وشغل البيت. أمَّا شغلته فإنه عربجي يسرح بالعربة الكارُّو بين الأسواق، وبالمرة يتسوَّق لزوجه أيّ شروة فاكهة أو خضراوات. لقد عشقتُه حقًا، كان تشخيصًا للمرح المصري في صورته المطلقة. وكان حلو الصوت، إذا تجلَّى وغنَّى لحن «أمَل حياتي» فسوف يُنسيك أمّ كلثوم بما في صوته من حمولة من الشجن الحيوى والمشاعر الدافئة المشعة بالبهجة. يقتسم معك لقمته وحشيشته وأفيونته ويعزمك فوق البيعة على واحد شاي. أثناء سهراتنا الممتدة حتى صلاة الفجر في الحسين كان العمل دائرًا على قدم وساق في مشروعين خطيرين: استكمال وصلات كوبري ستة أكتوبر، وهي كالأخطبوط المعمارى بمداخل ومخارج تتكون منها شبكة الطريق الدائرى حول القاهرة، أمَّا المشروع الثاني فهو شق طريق الأوتوستراد الموازي لصلاح سالم، وهو طريق سريع يصل بين حلوان ومطار القاهرة. وكانت الفُرْصة متاحة لأن

يشتغل أبو ميمي وعربته الكارو بحصانها العفي في نقل أحجار وأتربة بأجور مجزية، لكنه رفض لأننا طوال الليل والنهار نشهد من قهوتنا البلدوزرات المهيبة تخترق مقابر المجاورين وتحرث أرضها بأسنان حداد، فتتناثر أمامها عظام أذرع وسيقان وجماجم بشرية يدوسها الدَّكَّاك الآلي ليُسَوّي بها الأرض، فتسري النار في أفئدتنا وينتفض أبو ميمي، ما إنْ يطْلُع الصباح حتى يمرَّ على الورش يجمع قروشًا على سبيل التبرعات لفعل الخير، ثم يشتري أمتارًا من قماش العبك يخيطها بنفسه صانعًا منها شكائر، ثم يجمع بعض الصبية ويغوص في أرض المقابر المحروثة يجمع العظام كلها يعبئها في الشكائر ثم يغلقها بالخيط، ويفحت لها في بقعة بعيدة ثم يدفنها ويردمها بالتراب ثم يعود إلينا وهو ينفض يديه فاشخًا حنكه بابتسامة أسيانة. وفي يوم فوجئنا بأنَّ ورش الدَّرَّاسة مطلوب إزالتها في الحال، وقد كان، فتفرَّق شَمْلُنا ثم شغلتنا الهموم والأيام سنين عددًا. وذات عصريَّة مبهجة حلا لي أن أركب بسيارتي متن هذه المراحل الجديدة من كوبري ستة أكتوبر من المحور إلى مدينة السلام إلى مدينة نصر. كنتُ سعيدًا حقًا بهذا الإنجاز الكبير، وإذا بسيارة سوزوكى نصف نقل تطاردني على الكوبري ثم تلحق بي، ويُطلُّ منها وجه مألوف ينادي بصوت أكثر ألفة:

- «اركن على جنب يا أستاذ!»

www.alkottob.com

فامتثلتُ في الحال وحضَنت على الرصيف ونزلت، لأجد سائق السوزوكي يهرول نحوي ويرتمي في أحضاني، إنه «أبو ميمي». صرنا نضحك بعُمق دونما سبب واضح، وكان أول شيء فعلته -بعد أن كففنا عن الضحك- أن أشرتُ بيدي في ابتهاج إلى السوزوكي النظيفة الجميلة وقلتُ في طرب حقيقي: «حلو اللي إنت عملته ده»، فأمّن على قولي بهزّة من رأسه صائحًا: «الدنيا بتتطوّر يا سعادة البيه». ثم تبادلنا أرقام الهواتف المحمولة.

الصفحة الثانية

في مثل هذا اليوم- الأحد- من كل أسبوع يكون احتشادي قد وَصَل إلى ذروة تُمَكّنني من كتابة مقالي الأسبوعي لمجلة الإذاعة والتليفزيون، الذي أحرص على كتابته بكل تركيز وصفاء هُما- إذ يتحققان- مصدر لذّتي الوحيدة في الحياة. وطوال ما يزيد على ثلاثين عامًا لم يحدث أن صدر عدد واحد من المجلّة بدون مقالي المزدان بصورتي واسمي بخطّ كبير، والمفرود على صفحتين قامت بيني وبينهما علاقة حميمة حتى بتّ أشعر بأنهما بيتي ومأواي ومنور أنفاسي، وربما- كذلك- مثواي الأخير، دائمًا وأبدًا هناك أكثر من عنوان يُشاغبني طوال الأسبوع، أعطي نفسي لكل العناوين، لكن عند الشروع في الكتابة يكون الكائن المعقّد الذي يسكُنني ويكتب لي قد حسم الأمر مُنْجَذبًا إلى العنوان الأكثر غنًى وحميميّة ووضوح سكك. زملائي المسئولون عن تنظيم تحرير المجلة واثقون تمام الثقة من أنني لا بُدّ أن أسلّم المقال في موعده، حتى وإن كنت محمولاً على محفة، لا يقلقون إنْ تأخّرتُ ساعات قليلة. واثقون أيضًا من أمانتي وحُسْن تقديري للمسئولية فيما

www.alkottob.com

أكتب، حتى لقد ينْزل «الماكيت» إلى المطبعة ممتلئ الصفحات إلا صفحتي، عندئذ أتوجّه بالمقال إلى المطبعة رأسًا فلا أغادرها إلا بعد جمعه وتصحيحه وربما قراءة بعض فقراته في الهاتف على رئيس التحرير.

ليتَني ما مررتُ على المقهى عصر ذلك اليوم، هناك التقيت رهطًا من أصدقاء الصِّبا الذين فرَّقت الأيام والشيخوخة بيني وبينهم فلم أعد ألتقيهم إلا صدفة ذات شأن يجمعهم، وهي دائمًا صدفة سعيدة، فمثلما الذكريات الجميلة توقظ بعضها بعضًا هكذا المشتركون في الذكريات يستدعون بعضهم بعضًا دون تدبير سابق، يكفي أن يتلاقى اثنان أو ثلاثة على مقهى أو في حفل أو مناسبة، إذ المؤكَّد في تسعين في المائة من الحالات أن يتوافَد بقية أعضاء الشلَّة الحميمة واحدًا وراء الآخر كأنَّ هاتفًا خفيًّا أوْعَزَ لكلٍّ منهم على حدة بأن يقوم الآن ويذهب إلى المكان الفلاني، أو لعلَّه كان مَارًّا بقرية فشَدَّته الذكريات إليه، وهذا ما قد حدث يومذاك: ما إن احتواني كهف الذكريات مع إبراهيم وفكرى وكمال، واستشعرتُ الدفء في برودة كوب الجعة المضبَّب- ربما بكثافة الذكريات لا من الثلج- حتى فوجئنا بإسماعيل يطُبُّ علينا. ما كادت أحضاننا تنفصل حتى فُوجِئْنا بنجيب وهاني وهشام يقفون فوق رءوسنا مأخُوذين بحلاوة المفاجأة. كلُّ واحد فينا كان لا يقصد المجيء إلى هنا

على الإطلاق لكن دافعًا خفيًّا قادَنا جميعًا إلى هنا بشكل أو بآخر. هطلت علينا الأكواب والزجاجات واللُّفافات بغزارة هطول العواطف السخنة الحريفة بعد اشتياق عميق. ضحكنا من القلب حقًّا، رأينا بعضنا في مرايانا. نضوج التجربة وحكمة السنين فسَّرا لنا الكثير مما استعدناه من مواقف عشناها وعبارات قلناها ومحاولات كتبناها وأزمات كابدناها وأخطاء قد اقترفناها.

أفرخت الذكريات وضوعفت فراخها فازدحمت بها المائدة الضيقة، ثم ضاق المقهى بها وبنا. تلاقت أعيننا على شعور مشترك بضرورة أن ننتقل إلى مكان رحب نمدِّد فيه هذه الذكريات ونفرد ثوبها الذي لا تني مغازلُنا تنسج فيه بقوة ونشاط لا تستطيع قوة في الأرض أن توقفهما. نظرات إبراهيم أوحت لنا بأن بيته في منيل الروضة هو أنسب مكان لنا في تلك اللحظة، فإبراهيم يسكن بمفرده في قصر عتيق حيث رحل أبوه ومن ورائه أمه، وهاجَرَ أخوه الأصغر إلى لندن أستاذًا بجامعة أكسفورد. تعارَكْنا عند دفع الحساب للجرسون الذي وقف حائرًا لا يدري من أيّ يدٍ يأخذ، لكنَّ هاني أراحَنا جميعًا ودَسَّ في جيب الجرسون بضع عشرات ثم تقدَّمَنا بقامته الفارعة. كل منّا ركب سيارته الخاصة، وكلٌّ منّا توقَّف في الطريق واستبضع مأكولات ومشروبات يعرف مدى قيمتها لدى المجموعة.

www.alkottob.com

في عز الانتشاء الحقيقي في أصفى حالاته وتجلياته سحبتُ القلم لأدوّن رقم هاتف إسماعيل الجديد، فتذكّرتُ في الحال أنني لم أكتب مقالي الأسبوعي، فكأنّ نَبْوتًا هَوَى فوق دماغي فشرخه، تاهَ صوابي، تبخّرت البهجة كلُّها في لمح البصر كأنْ لم تكن. مرتعبًا نظرتُ في ساعتي، العقرب كان يُشير إلى الثالثة صباحًا، يا للكارثة أين الحيويّة التي سأكتب بها؟ انزعج إبراهيم من منظري، ظنَّ أنني أقاوم شعورًا بالتعب:

- «تشرب كوبًا من الليمون؟».

نترت نفسي واقفًا في اضطراب:

- «لا تؤاخذوني يا جماعة، لا بُدَّ أن أنصرف الآن فورًا».

حملقوا في وجهي باستنكار ينضح بالترقب والتوجس متوقعين أن يكون انصرافي هذا المفاجئ لأمر شديد الخطورة. قلت بجديّة بلهجة مَنْ يشعر بأنه قد فرَّط في عرضه:

- «لم أكتب مقالي الأسبوعي بعد! نسيتُه ولكن لا مفر من كتابته وإلاَّ فسأتسبَّب في خراب بيت ناس لا ذنب لهم!».

الضحكة الصاعقة النشوانة، الجماعيَّة كصوت تنّين خرافيٍّ، زلزلتني، نفضتني. بَدَا السبب تافهًا جدًّا في نظرهم لدرجة أن ذراع هاني امتدَّت فوق كتفي وضغطت يده فأجلستني بالقوة:

- «مقال؟ هذه نكتة! نتلاقى بعد سنوات من الفرقة ثم يتركنا من أجل مقاله الأسبوعي!».

- «صدّقني أنت تبتذل نفسك بالكتابة في مجلة لا هدف لها سوى الدعاية لبرامج الإذاعة والتليفزيون، متى تعرف أنك أديب محترم؟!».

- «عيبه أنه لا يزال يأخذ مسألة الكتابة في الصحف السيارة بجديَّة! يا رجل! كتابة إيه وهباب إيه؟ الناس في مصر توقفوا عن القراءة، وإن قرءُوا لا يفهموا شيئًا!».

- «هذا عصر الخفة والابتذال، عصر المهرجين واللصوص ونواب القروض والمحتالين في توظيف الأموال وغسيلها وتهريبها!».

- «لايمنى عَ الفكة! الناس لا تحتاج اليوم للأدب والفن إنهم يحتاجون للرغيف! يُدَبّرون قُوتَهُم بكلّ نفس ضايقها الهوان!».

- «أنت ياما كتبت! خمسة وثلاثون عامًا لم تكفّ طوالها عن الكتابة وتبديد قُوت عيالك في شراء كتب وأوراق وأحبار وأقلام، فماذا أخذت غير الخوازيق؟ لو كنت سَرَحت بعربة فول مدمّس أو ترمس لكسبت في اليوم ما تتقاضاه ثمنًا لكتاب مقّقت فيه عينيك وهدرت دمك! يا رجل لا تقلب المواجع فينا. أفق لنفسك وشُف مستقبل عيالك!».

www.alkottob.com

- «ألا تأخذ لك عبرة من الأجيال السابقة؟ قل لي ما الذي أخذه توفيق الحكيم بجلالة قدره؟ مات فقيرًا ودُفنتْ أمجادُه معه! طه حسين بكلّ خدماته لا يزال جثمانُه يتلقّى الطعان من الجاحدين في هذا البلد! يحيى حقّي ويوسف إدريس أين هما الآن من ذاكرة الإعلام المصري؟».

- «لقد قالها حافظ إبراهيم صراحة في واحدة من أشهر قصائده: وما أنت يا مصرُ بدارِ الأديب.. ولا أنت بالبلد الطيب».

- «اقعد! اقعد يا رجل! ساعة الحظ لا تعوَّض! هذه اللحظة التي نعيشها أجْدَى وأهمُّ من أيّ مقال تكتبه!.. من أيّ كتابة».

- «يا أخي أعْطِ نفسك إجازة ولو لأسبوع واحد من حقّك أن تستريح! أنت إيه؟ ماكينة كتابة حديدية لا تتعب ولا تملّ! حتى الماكينة يجب أن تريحها وإلا خربت!».

أصررت على الانصراف، بل تعمَّدتُ أن أكون فظًّا. هبَبْتُ واقفًا، ودونما سلام أو كلام اندفعتُ خارجًا أحاول تذكُّر المكان الذي ركنتُ فيه سيارتي. اهتديتُ إليه بعد تلطيش مروّع. صوت المفتاح في كالون الشقة ضاع في صوت أذان الفجر. وضعتُ رأسي

تحت الصنبور ودعكْتُه بالصابونة. جَهَّزْتُ فنجانًا من القهوة السادة. جلستُ إلى مكتبي. قدمت نفسي للورق وللقلم، كنت ساخطًا على نفسي وعلى الرفاق، فإذا بالسخط يمتد لينسحب على الكتابة نفسها. فعلاً لقد نجحوا في تكسير مجاديفي، لقد اقتنعتُ بكل كلمة قيلت سيما وقد اتَّسمت كل الكلمات بالتلقائية والاندفاع العاطفي. في تلك اللحظة كرهتُ هذه الكتابة، احتقرتُ أن أكون كاتبًا في زمن لا قيمة فيه لأيّ قيمة على إطلاقها، زمن انتشرت فيه الأمية كالأورام السرطانية في جميع فئات المجتمع، حقًّا ما أصْدَقَ ما قالوه برغم مرارته العلقم، إذ ماذا أخذتُه أنا من عُمرٍ أنفقتُه بسخاء على الورق؟! سَوَّدتُ آلاف الصفحات وعشرات الكتب بقلم كان مدادُه دمي ودم عيالي ولكنَّ هذه الصفحات الملعونة عجزت عن أن تسُدَّ رمقنا، بله أن تُوَفِّر لنا حياة كريمة. أيها المفتون الساذج قد ضحَّيْتَ بالمكاسب المادّية جريًا وراء مكاسبَ أدبية راقية، فلم تحصُد غير الهشيم ولم تقبضْ سوى الريح كما ألَحَّ من قبلك أستاذك المازني. وها أنت ذا بعد كل هذا الكفاح المرير قد تخطَّاك الزمن الوغد وخلفك صوتًا صادحًا في بَرِّيَّة جرداءَ لا تتردَّد فيها ثمة من أصداء.

ما أعجبني وأغربني، رغم كل هذا الذي يمور في صدري لا أزال أتعشَّم في كتابة المقال. غير أن الأمر قد اختلف الآن، فأنا قد صرت بالفعل غير مقتنع بجدوى الكتابة، إلا أنني مرغم على

www.alkottob.com

كتابة هذا المقال في التوّ واللحظة لإنقاذ زملائي الذين وثقوا فيَّ، من ورطة ستُعَرّضُهم للمساءلة وربما لعقاب سخيف، حتى أوان الاعتذار قد فات منذ وقت طويل وليس ثمة من فرصة للبحث عن موضوع يملأ الصفحتين الفارغتين في انتظاري في المطبعة.

أخذتُ أقلّب في العناوين التي أزمعتُ الكتابة فيها، دوّنتُها في ورقة جعلتُ أحسن خطّها بحروف كبيرة، أنقلها من ورقة إلى ورقة كأنني أبغي تفتيتها ونزع قشرتها الصلبة عن الثمرة التي تحتويها. صرتُ أكاد أشتال العنوان وأهبده في الأرض لعله يتفتت إلى عناصر وأفكار يمكن الخوض فيها ولكن عبثًا لا فائدة. كل العناوين سخيفة سقيمة، كل شيء في هذه الحياة، في هذا البلد، لا معنى له على الإطلاق. اللعنة على الجميع بلا استثناء بمن فيهم الذين أولدونا والذين علمونا والذين سحرونا بأساليبهم واقتادونا إلى متاهات نهايتها سراب في سراب. خلاص لن أكتب، هل أحرق نفسي؟ ماذا أفعل أكثر مما فعلت؟ لو كان عندي مقال قديم حتى ولو من محاولات الصبا لقدمتُه للنشر واسترحت، لكنني- مع الأسف- كنتُ كالمطحنة طوال عمري، فما طحنت إلا نفسي. كانت دمائي مفتوحة على المطبعة في أنابيب موصولة لا تكفُّ عن الضخ.

أما وقد سلّمت بخسّتي في عدم الوفاء بمسئولية تحمّلتُها ما يزيد على ثلاثين عامًا فإنني لا أقبل أن أكون خسيسًا تمامًا، وإذنْ فلأقُمْ من فَوْري لأوقظ صديقي مدير التحرير من النوم لأبلغه بأنني عجزت عن الكتابة وسأبدي استعدادي للوقوف أمام باب المجلة حتى يفتح فأدخل إلى مكتبه وأتخيّر من المؤجّلات موضوعًا يملأ صفحتين وأقوم بتوصيله إلى المطبعة فلا أغادرها إلا بعد تمام طبع المجلة بكاملها. أمسكتُ بسمّاعة الهاتف، صوتٌ إلهيٌّ قال لي: تمهّلْ قبل أن تُزْعج الناس، قُمِ الآن وغادر الشقة، انْزِلْ إلى الشارع لعلّك تجد فيه ظلاً مِنْ الإلهام! اجلس على أيّ مقهى، فأنت قهوجي قديم، تحبُّ الكتابة في المقاهي! فإنْ لم تفلح في ترويض عقلك المتمرّد فمن هاتف المقهى تتصرّف في اتصالاتك ويكون الوقت قد صارَ مناسبًا للإيقاظ.

كان لون الصباح ازدوازيًا، والجو ربيعيًا مفعمًا بنكهة الأنوثة وينضوي تحت سكون ناعم كالخديعة الساذجة. في أول شارع قصر العيني صافحني جو المقهى الشعبي المطلة شبابيكه على شارع قصر العيني وبابه يفتح في الحارة الجانبية بجوار محل المعلم دبشة الجزار. حينما ركنتُ سيارتي أمامه داعبني أمل في أنني قد أجد ضالّتي في المعلم دبشة الجزار، لقد كان من كبار ظرفاء عصره ووجهًا من وجوه أعيان روّاد مقهى وبار

www.alkottob.com

اللواء المواجه لمبنى البنك الأهلي، بين أعلام كبار يعملون له ألف حساب، مثل عبد العزيز البشري ومحجوب ثابت وإمام العبد وغيرهم. حدث أن كان الشيخ عبد العزيز البشري يأكل بشراهة في المقهى وكان أهتَم، فأشفق إمام العبد عليه وقال له: يا شيخ عبد العزيز، أنا قلت لك تعالى أوديك للدكتور يعمل لك طقم سنان ولو على حسابي. فإذا بالمعلم دبشة الجزَّار يُعلّق قائلاً: ما تتعبش نفسك، هو بيخاف أحسن الطقم ياكل معاه.

ولكنني حينما فردتُ الورق لأكتب عن ذلك الجو الدافئ المرح بين الظرفاء ما لبثتُ حتى شعرتُ بسخف الموضوع وضآلته وضحالته. عندئذ شعرتُ بالجوع. المطعم المواجه للمقهى يقيم مهرجانًا صاخبًا برائحة الطعمية الساخنة يفتح الشهية، فكَّرْتُ أن شريحة خُبْز بالفول وأخرى بالطعمية مع كوب الشاي شيءٌ بديع..

وقفتُ بين ثلاثة رجال في مدخل المطعم أنتظر دوري، فلمّا صار أمامي واحد فقط انتبهتُ إلى أنَّ هذه التلال من الورق على يمين صاحب المطعم هي أعداد من مرتجع مجلتي ومجلات أخرى، فانقبض صدري إذ أرى بعيني أن المجلة التي أهرقتُ على صفحاتها دمي لم تعُدْ إلاّ ورقًا للفّ الأشياء، ويا ربّي.. إنَّ هذا الذي يحدث لهو منتهى القسوة. رأيتُ صاحب

المطعم ينزع ورقة ليقرطسها كي يضع فيها الطعمية التي طلبتُها لأستمتع بأكلها منفردة. هذه الصفحة هي الثانية من مقالي الأسبوعي، وهذه صورتي تنبرم تحت يد الرجل، ها هي ذي أقراص الطعمية تبقعها بالزيت وتُشوّه معالمها.

تم تدميري تمامًا، صرتُ هديمًا يفحُّ منه الغبار الكثيف، صرتُ أبحث بين أنقاضي عن يد تمتدُّ لتأخذ الرغيف وقرطاس الطعميَّة من الرجل.

ارتميتُ على الكرسيّ، لممتُ أوراقي وألقيتُ بها في الحقيبة بحركة من يدقُّ آخر مسمار في نعش الكتابة، ثم فككتُ القرطاس فتناثرت أقراصُ الطعمية. صورتي صارت كبطشة زيت أسود لا معالم لها، تلك كانت صورتي. كذلك من الداخل، شعرتُ بأنني مجرد ورم شائه بلا ملامح، قد ورَّمتْني الحياة وطمَسَتْ معالمي، صرتُ كائنًا بلا أصداء، وربما بلا ظلّ. خُيّل إليَّ أنني لو نظرتُ الآنَ في المرآة فلن أجد فيها أيَّ انعكاس لي، وقد غاب عن فطنتي أنني كلما رفعتُ رأسي المنكبَّ على الخبز والطعمية طالعني رأسي في مرآة كبيرة في برواز على الحائط المقابل.

كنتُ أبتلع دموعًا ساخنة مذاقها أقوى من مذاق الطعمية الحريف، أمضغ في سأم، أبلع بصعوبة، أستعين برشفة شاي، تتسكع نظراتي على كل المرئيات من حواليَّ..

www.alkottob.com

تلكأت نظراتي عند رجل يجلس قبالتي. هذا هو الرجل الذي كان يقف أمامي مباشرة في المطعم، لكأن السماء قد أبرقت إثر تصادم للسحاب المتراكم بقسوة فوق صدري. على ضوء البرق الخاطف انتبهتُ إلى أن الرجل مندمج في قراءة الصفحة التي لُفَّتْ بها طعميته، كان يتوقف عن المضغ كثيرًا ليمعن في الكلمات التي راح يقرؤها بشغف واضح، إذن فالقراءة غريزة إنسانية لا يمكن التنصُّل منها بأيّ حال من الأحوال، وإذن فالقراءة مرهونة بصدق المكتوب وجدّيته، ولا بُدَّ أن هذا الرجل البسيط قد وجد فيما يقرؤه ما يستحقُّ أن ينكَبَّ عليه هكذا. صرتُ فرحًا به أكاد أقوم لأقبّله في رأسه، صرتُ أشبُّ وأرفع رأسي محاولاً رؤية هذا الذي قرأه. أدفع عمري لأعرف ما الموضوع الذي جذبه بكل هذا الاهتمام. يا إلهي، برق السماء صار سرادقًا من الضوء، هطل المطر في صدري فتشرَّبَتْهُ جميع أعضائي باشتياق، السماء مزدانة بقوس قزح، كل ذلك لأنني تأكّدتُ أن الصفحة التي يقرأ فيها الرجل هي على وجه التحديد الصفحة الأولى من مقالي الذي تتمدَّد صفحته الثانية تحت بقايا أقراص طعميَّتي. تراقصت جميع أطرافي وأنا أتابع الرجل كأني عثرت على كنْز ثمين يخصُّني وَحْدي وأخشى ضياعه. عند آخر كلمة في آخر سطر رأيتُ الرجل يقلب الصفحة تلقائيًّا بحثًا عن

البقية. في لمح البصر صرتُ واقفًا أمامه أقدّم له الصفحة الثانية، رمَقَني بابتسامة وبنظرة غاية في الدماثة ومَدَّ يده ليصافحني شاكرًا. صافحتُه بحرارة، ثم عدت إلى منضدتي فسحبتُ الأوراق وقد صرتُ خَلْقًا جديدًا، وشرعتُ أكتب المقال عن كل هذا الذي قد حدث.

www.alkottob.com

حصاد البؤس

يبدأ الموسم عادة بأن يضمحلَّ الرُّكود في القرية شيئًا فشيئًا وعلى مدى أيام طويلة مفعمة بالدفء والعُذوبة والترقُّب، تستيقظ في الأخيلة والأبدان كلُّ الآمال والأمنيات المؤجَّلة ربما من سنوات بعيدة حيث يتجدَّد حضورُها في كلِّ موسم: فغدًا أو بعد غد تتمُّ دُخلة البنت «رتيبة» بنت الجيران على خطيبها «عنتر» من شرقي البلد. وتتمُّ خطوبة «فايقة» بنت الصوفاني للولد محمود ابن عمها، وفي حفل الخطوبة يختن أخوها الصغير. ويتم بناء الجدران المائلة في الدور. ويذهب عوضين- العيَّان بكيفه كما يُسمُّونه في نواحينا- إلى حكيم البندر ويقول له بكل جرأة: «معاك من جنيه لمائة لتُزيل عنِّي تضخُّم الطحال!» ويرتدي الشبان- بعد لأي- جلاليبَ من الصُّوف والكشمير تشبهًا بالكبار. وترتفع مصاريف حسن طالب الابتدائية والوحيد في عائلتنا وتُشترَى له بدلة جديدة وربما طربوش وحذاء جديدان.

كل ذلك يستيقظ في كل الأفئدة، كبيرة كانت أو صغيرة، حتى أولئك الذين لم تكن لهم في الأصل أمنيات، تنبت لهم آمال

مفاجئة يخلقها مناخ الأمنيات الآخذ في الشيوع على مدى بضعة شهور قبل أن تنبت بذرة القطن الخضراء في أراضي بلدتنا المترامية الحدود. فالجميع طوال العام لم يكونوا يسمعون سوى كلمة واحدة كجواب على أيِّ طلب يطلبونه: «أمَّا نجمع القطن وعليك خير!».

وكل أمنية وشيكة التحقيق لا يقف في زورها سوى كلمة: «أمَّا نبيع!» وحينئذ يشتدُّ خفق القلوب، إذ كثيرًا ما يحدث الجَمْع ثم البيع دون أن يتحقق شيء كثير مما هاجت به الأفئدة. ذلك أن الجنيهات التي يقبضونها عند البيع لا تكاد تبلغ الدار حتى تكون قد تبددت في مشتريات حدثت منذ عام مضى.

مع ذلك تنتعش الحياة في بلدتنا انتعاشًا كبيرًا. تزول الخشونة والفظاظة من سلوك البقَّالين والخيَّاطين وتجار الحبوب والجُزْمَجيَّة. يتحوَّل الجميعُ فجأةً إلى رجال تملَؤهم الشهامة ويفيض منهم الوُدُّ، حتى ليثق فيك- فجأة- ناسٌ ما كانوا من قَبْلُ يمنحونك هذا الشرف أبدًا، يُصَدِّقك البائع إن قلت له- وأنت تشتري باكو دخان شُكْك على الحساب- إنك سوف تحاسبه بعد يوم السوق المقبل. وإذا مَيَّلْتَ على الحاج عمران تاجر الحبوب والأقطان وطلبتَ منه مبلغًا على سبيل القرض الحسن فإنك تكون واثقًا من أنه سيُعطيك دون تخفيض أو مماحكة. هو ليس عبيطًا، هو يعرف أنك بارعٌ في جَمْع القُطن

www.alkottob.com

أو حتى سرقته على أيّ مستوى، وأنك لن تبيع في نهاية المطاف إلا له هو، فبما أنه الغول الذي يبتلع قطن الجميع بالتسليف الفوري المستمر، فأنت تجد من الحصافة البيع له حتى لا يكون هناك وسيط يأخذ منك فرق السعر كمكسب له. يسرح بأمواله سباع وذئاب وثعالب ينتشرون في الأسواق في القرى المجاورة، وعلى شُطآن المصارف ومفارق الطُّرق، لاصطياد العائدين من الحقول، والراغبين في التخلص ممَّا معهم سرًّا وبدون شوشرة.

الجميع يشتري وُدَّ الجميع على نطاق واسع جدًّا، يصبح للصياع والبلطجيَّة سعر وأيُّ سعر، فمن ورائهم تجيء صفقات مدهشة، ويستفيد من يستعين بهم أيما فائدة. يصبح منظر شارعنا جميلاً غاية الجمال، من بعد صلاة العصر مباشرة يزدهي الشارع، يمتلئ بالألوان المدهشة، التي تتفرَّع كلها من- وتصب في- لون القطن الأبيض، حيث تحوَّلت معظم المصاطب الممتدة أمام الدور إلى مفارش من الحصير الملوَّن أو الأجولة المفرودة، والأرض أمامها مفروشة لمسافات طويلة تتقارب تتلاحم بحدود رشّ المصاطب المجاورة. على كل مصطبة يجلس ولد ومعه معاون له أو أكثر من إخوته أو رفاقه أو ذويه. قد يبدو صبيًّا صغيرًا، ولكن تَفَرَّج عليه بعد برهة، لا تندهش إذا دبَّ يده في جيب الصديري كالرجال ليخرج منه منديلاً

محلاويًّا أو كيسًا مطويًا على حوالى ثلاثة كيلو جرامات نقودًا سائبة من الفضة والبرونز والورق. ليس المهم بفلوس من يتاجر هذا الصبي أو ذاك، لكنَّ المهم أن المهرجان طيب وجميل بل وساحر.

إنْ هي إلا دقائق وتبدأ أسراب الصبايا تتوافد، تتواثب، مثنى مثنى، ثلاثًا ثلاثًا، أربعًا أربعًا، كلهن معروفات للجميع، فالكُلُّ يعرف الكل، جيل الشيوخ مُلِمٌّ بجيل الصبيان إلى حَدّ المزاح معًا كأنهم أنداد، يحلو للشيخ أن يُوهِمَ الصبيان بأنهم أنداده حتى يظفر من ورائهم بطائل من الأخبار أو الحكاوي الطريفة، أو يظفروا منه بشيء من التجربة أو حتى بسخرية يستعيدونها فيما بعد باشتياق.

على واحد من هذه المفارش يجلس «عبد الحسيب» يثقب بعينيه سربًا من صبايا قادمات من حودية العكايشة، يُدَبِّر لاصطيادهنَّ بالحيلة المناسبة، هو يعرف أن الجميع في هذه الأيام يبيع، وليس من أحد يسأل: من أين جيء بهذا القطن؟ فالمهمُّ أنَّ الذي سيُباع موجودٌ وبكثرة. من جَمَع قطنًا من أرضه التي يملكها أو يستأجرها أو يعمل أجيرًا فيها فإنه يتعجَّل ذوق طعم الفلوس بمجرد وصول القطن من الحقل إلى الدار، يريد أن يشتري شيئًا حُلوًا يأكله، لا بأس من أن يبيع ملء قفة أو أكثر يصطبر بثمنها ريثما يجمع الأرض، جمعتين أو ثلاثة،

www.alkottob.com

ليبيع على مهله البيع الأكبر. وثمة أنفار لا يملكون أرضًا لكنهم يبيعون أيضًا، فما لي أنا لكي أسأله من أين جئت بهذا القطن يا ولد؟ ما لي أنا؟ أليس من المحتمل أن يكون منوبًا عن أحد في البيع فحسب؟ ربما، فمَن أدْرَى أيَّ رجل من رجال البلدة أن زوجه انتهزت فرصة خروجه وأرسلت الولد فلان التمللي أو البنت فلانة الخدَّامة وقالت له أو لها: «روح بيع شوية القطن دول في السرّ وتعالى!».

إذن فأنا جاهز، هكذا يعلن «عبد الحسيب» أو أي صاحب فرش، أيصح أن تفلت منه الفريسة وهو أول من يقابلها عند حودتها من الناصية؟ إنَّ هذا ما لا يصح من عبد الحسيب أبدًا، إنه عبد الحسيب الشيخ والأجر على الله. ها هو ذا يصيح بلهجة ثعلبية سافرة يبسم لها ويلعب حاجبيه الجميلين فتتراقص كل ملامح وجهه الأبيض المستطيل تحت طاقيَّة مشغولة من الصوف السمني اللون، وتبرز أسنانه المتسقة الكبيرة بعض الشيء المفلوجة من أمام فلجًا يصنع بين شفتيه صليبًا وهميًّا لطيفًا:

- اتفضلوا! أهلاً أهلاً! تعالي يا سميرة! تعالي يا سمورة!».

هكذا يشرع في استقبال سميرة ومن معها من صبايا، معطيًا إياها فوق ما تستحقُّ من التدليع والحفاوة والود، هو الذي إن قابلها بعد ذلك أو قبل ذلك فلربما زَغَدَها بكوعه في غيظ

أو سبَّ لها ديك الكفَرة. سميرة نفسها- شأن مَنْ هُنَّ على شاكلتها- تعرف عبد الحسيب الشيخ حقَّ المعرفة وتعرف أنه يتملَّقها ويكاد يذوب في هواها، ومع ذلك لا تقدر على إخفاء الزهو والاختيال، فإذا هي تتأوَّد في عياقة يحسدها عليها الناس المبسوطون، كأنما العياقة خُلقت لبناتهم فحسب. ولذلك فسرعان ما يلوون شفاههم في قرف، وفي همس ينعتونها بأقبح الأوصاف وأشنع الرذائل فيما هم يتابعونها من تحت إلى تحت: بنت الكلب ترفع ذراعيها لتسند القفة على رأسها فيستطيل خصرها ويرتفع صدرها آخذًا أهبته الكاملة للمبارزة متحدّيًا فروسيَّة الفرسان، تتوسَّط منطقة الخصر دائرة السُّر، أو السُّرة، كالعجين الخمران، كالقمر، كالرغيف، كعين أُغْلِقَت على سرٍّ غامض وقُدِّرَ لها أن تفتن البصر. اللعنة عليك وعلى من رَبَّاك. تستدير لتُنْزل القُفَّة عن رأسها فتستقرُّ كل العيون على العجيزة، تكوينها البديع يتحدَّى ذلك الثوب المتَّسع رغم احتشامة الفقر فيه وهي فتاة. اللعنة عليك وعلى من رباك، تقولها حتى النساء الواقفات حواليها في انتظار دورهن ابتغاء البيع، كأنَّ الذي ربَّاها مسئولٌ عن خَرْطها هذه الخرطة الساحرة وهذا التكوين الإلهي البديع.

- يا خلق! فلتحتشموا! ضعوا في عيونكم حصوة ملح!!».

www.alkottob.com

بهذا القول الهامس اللعوب يُبحلق عبد الحسيب الشيخ فيمن يلمح في عينيه كذا أو كذا، يقوله حتى على سبيل الغزَل بدوره، ثم يستطرد مُعلقًا كأنما ليعتذر بلباقة، شأن فصحاء المسجد ومنادر الانتخابات:

- «أنتم هكذا تسبون الله شخصيًا والعياذ بالله! أليست هذه السنيورة خلقة الله؟! ماذا تطلبون احتشامًا أكثر من هذا بحق جاه النبي؟! لكن! دعك منهم يا حلوة! أنزلي القفة! أو دعيها لي أنا! نعم هكذا!»

وبأسرع من البرق تكون يداه قد أنشبتا الأظافر في كومة القطن وقلبته من القاع إلى أعلى مرورًا بالقلب وما حوله، عدة مرات، هو من النظرة الأولى عرف نوع القطن وأدرك أنه من أجود نوع طويل التّيلة، إذن فإنه من أرض فلان الفلاني وهذه البنت خادمتهم أو جارتهم أو صديقة أو قريبة. إنما هو يقلب ليعرف، فحسب، هل كل ما تحويه القفة من نفس النوع أم اختلط بقاعه السكرتو بالكرنك بالسكاليريدس؟

أما وقد اطمأنَّ إلى أنَّ القفة كلها من نفس النوع فإن البنت إذن أمينة، وقد جاءت بالقطن من دار فلان إلى هنا مباشرة، يدرك أنها تبعًا لذلك سوف ترجع لأهل الدار بما قبضته كله، حينئذ عليه أن يعطيها سعرًا يضمن أنها لن تعارضه، لكنه يَنْزل مُقدَّمًا عن هذا السعر ست أو سبع درجات كل درجة تمثل

نصف قرش في الرطل، عند ذاك يقترب من الفتاة هامسًا بكثير من الودّ والدفء في أذنيها:

- «صلي على النبي يا بنت الناس!»

تقول باسمة في طرف شالها الذي استعارته- لابد- من إحدى بنات الدار صاحبة القطن:

- «ألف صلاة عليه!»

يخافت من صوته كأنما سيُذيع سرًا خطيرًا:

- «عشان خاطر عيونك انت بس! أنا أعرف البئر وغطاه! كلنا شقيانين في سبيل لقمة العيش! سأعطيك خمسة ونصفًا!..»

تعرف أنها ستتقاضى، تبعًا لعرضه، خمسة قروش ونصفًا عن كل رطل مما في هذه القفة، وسواء كان ذلك كثيرًا أم قليلاً فإنها لا بُدَّ أن تتشكك، ولا بُدَّ أن تشيح بوجهها بعيدًا في حيرة وإن احتفظت بابتسامتها إبقاءً لحبل الفصال. يعاجلها عبد الحسيب:

- «هيه! أزن؟!»

ترد بشيء من الخجل:

- «الوزن ملحوق عليه! المهم كلام البيع والشراء!»

يشوح بذراعه قائلاً كأنما في حسم نهائي:

- «وافقت بستّة؟ زِنْ يا ولد!»

www.alkottob.com

ويشير إلى الولد الممسك بالميزان القبّاني. تسرع هي في قليل من الجرأة:

- «حَاسِبْ حَاسِبْ! قال ستة قال! حَدّش شافك النهارده؟!»

تهمّ برفع القُفّة عن الأرض. تهبط عينه إلى كومة القطن في ذعر وتحسُّر، لكنه سرعان ما يعتقل نظرته في لا مبالاة مصطنعة، يمعن في اللامبالاة، إمعانًا في نصب الشراك للفريسة، حتى إذا أيقنت الفريسة أنه غير راغب فيها أقبلَتْ عليه بمحض إرادتها واختيارها. وهكذا يتطوّع عبد الحسيب الشيخ بمساعدة الفتاة في رفع القُفّة إلى رأسها بكل أريحية وهو في أعماقه يود لو قَلَبَها على مفرشه، غير أنه وهو يحاذي القفة من رأسها يعلقها بين يديه لبرهة، هامسًا في أذنها:

- «وافقت بستة ونصف؟!»

فإن لمح ترددًا ينذر بموافقة أسرع بدلق القفة فوق المفرش، وأما إن جُوبِهَ بصَدٍّ من الملامح متين فإنه يريح القفة على رأسها في شهامة، فيما يهمس في أذنيها:

- «أقول لك؟ خُذي السبعة وأمري إلى الله! أنا صعبان عليَّ لفّك بالشيلة الثقيلة! ولا داعي للف بدون نتيجة!».

فإن هي ردعته برمش ساج غير مبال، واستدارت ماضية، فإنه يلاحقها بصوته الطروب:

- «خُذي سبعة ونصفًا!»

فإذا ما استمرت في مضيها أرسل صوته في كعبها:

- «إذن فثمانية!»

فإذا لم تتوقف وتستدير عائدة صاح كالمغلوب على أمره:

- «ثمانية ونصفًا!»

وإذ يتأكد أنها ستستمر في مضيها فإنه يودعها بصيحة الذي انهزم بمزاجه:

- «تعالي فخذي التسعة!»

ثم بسرعة متتالية:

- «تسعة ونصفًا! عشرة!»

وحينئذ يكون قد اطمأن إلى أنه قد ربط دماغها ربطًا محكمًا، وأن الصفقة عائدة إليه لا محالة، فالسعر الذي ألقى به وراءها لن تبلغه الفتاة بأي حال من الأحوال، إنه مجرد ربط للدماغ فحسب، ستظل الفتاة متمسّكة به على الأقل حين لا تجد أزيد منه، وهنا سوف يتعين عليها أن تنهي لفّها حول البلدة في شارع داير الناحية وربما في حواريها في طلب السعر الذي سمعته من عبد الحسيب، إلى أن تعود في النهاية إلى عبد الحسيب في منتصف المساء قائلة بقليل من الخجل وكثير من إظهار الودّ المفاجئ:

- «خد يا عم! اوزن!»

www.alkottob.com

ثم تشفع خضوعها قائلة، وهي تعرف أنه يعرف أنها تكذب:

- «والله جاءني نفس السعر! فقلت إنك أولى من الغريب! فأنت ابن جهتنا مهما كان!».

حينئذ تفاجأ بأنها أمام شخص آخر تماما غير عبد الحسيب الذي تركته في مقتبل الأصيل، شخص أنهكه الفصال المتواصل والمناهدة والمناكفة والتقليب والمساعدة في الإنزال والمعاونة في إعادة الرفع أو في الدلق على المفرش، يتخلل ذلك استخراج لكيس النقود وعَدّ أعداد منها وتقديمها، وعراك حول دقّة الميزان وبقايا الفكّة. يكون مع ذلك قد رآها وتأكّد من عودتها دون أن ينظرها بعينيه. إنما هو يتعمّد إهمالها طويلاً حتى تكاد بنفسها تدلق القُفّة على مفرشه وتمضي. بكل استمتاع هادئ يُنْهي وقفة مجموعة من الصبيان لا يتعدّى ما مع الواحد منهم عن ملء منديل محلاوي.

هنا يحق لها أن تحتجّ على طول وقفتها قائلة:

- «مشيني بقي يا عبد الحسيب!»

لحظتئذ ينظر إليها كأنه يراها لأول مرة، وكأنه لم يعرفها من قبل ولم يسبق له التودُّد إليها منذ قليل يقول:

- «أيوه.. نعم يا ست الكل! يلزم خدمة؟!».

لو كانت هي صاحبة القطن حقًا فإنها لابد أن ترفع القفة في الحال وتمضي غاضبة لتنقذ البقية الباقية من ماء وجهها،

وهذا ما يعرفه عبد الحسيب جيدًا، ويعرف أيضا أنها مجرد مندوبة أنيط بها بيع هذه الأمانة خُلسة نظير نفع مادي أو حتى نظرة رضاء من صاحب الأمانة الأصلي، لهذا يثق أنها سوف تحتمل كل ألاعيبه تفاديًا للرجوع بالصفقة إلى أصحابها فتثير الخيبة والنكد وربما أنذرت بفضيحة.

تتذرَّع الفتاة بابتسامتها المرتعشة وهي تهيب به أن يخلصها:

- «يا خُويَه بلا دَلَع أُمَّال!».

بوجه مشدود الملامح ينحني على القفة من جديد فيعيد فحصها أكثر مما سبق، وبلهجة حاسمة- فيما يدفع بالفقة نحوها كأنه يأمرها بطريقة خفيَّة أن تحملها وتمضي- يقول:

- «بثمانية!».

ثم لا يزيد مليمًا واحدًا، أو حرفًا واحدًا، ليقينه التام أن هذا السعر هو أعلى سعر عُرِضَ عليها خلال تجوالها في داير الناحية، أما التجَّار الفارشون في الحواري الجانبية فإنها لا تذهب إليهم لأنهم يشترون قطنا معينًا من طائفة معينة، القطن الذي هو عبارة عن نتف منْزوعة من أنياب اللوزات الناشفة، أو التي لم تنضج تماما، مما يجعل القطن مشوبًا بظلال خضراء كعصيدة أصيبت بالعفن، ومثل هذا القطن لا يجلبه سوى الغلمان الذين يسرحون في الغيطان لالتقاط البقايا المتناثرة على هطال الطرقات. وأمثال هؤلاء المشترين يندر أن تقف أمامهم صبية بقفة تمتلئ بقطن صحيح نظيف.

www.alkottob.com

في الغالب تهم الفتاة برفع القُفَّة من جديد بحركة متطامنة، طمعًا في أن يزيد عبد الحسيب شيئًا، أي شيء. لكنها حين تنظر في وجهه وتراه قد انصرف عنها نهائيًا تجد نفسها مضطرة إلى ترك القفة وإزاحتها قائلة: «هات!».

فبسرعة متقنة يدلق عبد الحسيب القفة على مفرشه الذي اتسع في سويعات قليلة فصار يضم ثلاث كومات أو أكثر، كل كومة تضم نوعًا مختلفًا من القطن. يشد كيس النقود من جيب الصديري ويعد لها نقودها، ثم يتجه إلى الجوال المخصص لجلسته حيث يكرر نفس الحركة التي يفعلها كلما جلس: يمسك براد الشاي من الصينية ويصب منه في الكوب، ويتضح له في كل مرة أن البراد فارغ، فلا يتذكر من الذي شربه ومتي شربه.

كلَّما أقبل المساء تهيَّأت له الكلوبات الساهرة المتناثرة، وتتلألأ مساحات الضوء على أرض البلدة التي لا تشهد الضوء المبهر إلا في مناسبات قليلة كهذه. يكون سوق البيع والشراء قد وصل إلى أوْجِه، وتنوَّعت الزبائن وتباينت الأشكال والأسعار، حيث قد عاد الرجال من الحقول وصَلُّوا العشاء وفكَّروا في قرشين لزوم البَغْدَدة والسَّفَر إلى مدينة دسوق لدخول «السيما» وأكل الطعمية الساخنة التي لا يمكن أن تكون شبيهة بأم الفلافل في بلدتنا رغم أنها الخالق الناطق هي.

تخرج كميات لا بأس بها من قفف القطن من مخازن العائلات

سرًّا، أو بمعرفة الشبان الكبار الذين يشعرون بالاستحقاق نظرًا للجهود الخارقة التي بذلوها في سبيل ابيضاض هذه اللوزات من بذر وعزيق وري ونقاوة لطع وجمع، أو بمعرفة النساء الموالسات ضد ضرائرهن.

نحرم على أنفسنا اللعب في الأجران رغم أننا في ليالي اللعب نتمنى حزمة ضوء واحدة من هذه الحزم المبهجة المنسربة الممتدة من كل مكان في كل مكان، حتى لتبدو القرية في عتمة الليل كرسومات من الضوء بين كتل سوداء كثيفة.

يصعب علينا مغادرة منظر الضوء والانصراف عنه إلى اللعب، فنقضي الوقت نمرح في شغف بالضوء.. يجذبنا المهرجان وهو كبير وحافل.. تخلو الأجران كلها من الأولاد، لتراهم أمام مصاطب ومفارش الشراء يبيعون شيئًا لهم أو لأقاربهم، أو يتطوعون بالمعاونة في مساعدة المشتري وفضّ المشاكل وإحباط المعارك التي لا بُدَّ أن تنشأ بسبب الفصال والأخذ والرَّدّ والمناكفة وضيق الخلق.

ما أفكه منظرنا نحن الذين لا ناقة لنا في الموضوع ولا جَمَل. بدافع الفرح العام وحده ترانا ككذَّاب الزفَّة، يبدو علينا الفرح أكثر من أصحاب الفرح، يبدو علينا الحرص الشديد على كل شيء كأنَّ القطن قطننا والأرض أرضنا والأموال ستدخل جيوبنا. نمر على الغيطان في العصاري بحجة الفسحة على

www.alkottob.com

شاطئ الترعة، وفي الواقع لا نكون منجذبين إلا بمنظر القطن يكسو مساحات شاسعة من الأراضي السمراء كخيمة من النجوم المنتفشة كبساط من القطيفة البيضاء، تتخلله مجموعات من الأنفار محنية على الخطوط، تنبعج كروشهم وجنوبهم، فلقد تحوَّلت جلابيبهم إلى «عبيات» إذ يرفع النفر ثوبه إلى ما فوق ركبتيه ويتحزَّم عليه فيصنع في الثوب فراغًا متسعًا كالكيس، وينحني فوق شجرة القطن بيدين مدربتين تدريبًا هائلاً، حيث تروح اليدان تحومان حول الشجرة وتنفضان بأطراف الأصابع فوق اللوز المتفتح السايح لتقطف بسرعة فائقة، صاعدة هابطة متخللة أفرع الحطب الجاف، حتى إذا امتلأت القبضات شيعت حفنات القطن في «العبية» من فتحة طوق الجلباب. وإذ ينتهي الخط يستدير الأنفار عائدين في خطوط عكسية مجاورة، وتكون «العبيات» قد امتلأت وجعببت، فيتجهون جميعًا في طابور إلى المفرش، وهو عبارة عن حصير كبير أو جوالات من الخيش المفرود تنبسط على الأرض، حيث يقف النفر فوقه ويفك حزامه، فينهمر القطن من تحت ثوبه مكونًا دائرة حول ساقيه، ثم ينفض نفسه جيدًا فوق المفرش، ويمضي ليلحق بخطه الجديد، ليتولى أنفار آخرون- مأجورون أو من أصحاب الأرض- تعبئة ذلك في أكياس وغرارات تنقلها الجمال والحمير إلى الدور في البلدة لتُفرَّغ على المصاطب في القاعات الداخلية.

تتحوَّل جميع طرقات الحقول وشوارع البلدة إلى خلية تشغي بالجِمَال والحمير العائدة أو السارحة، ونتف القطن تتبعثر على الوجوه وتَعْلَقُ بالثياب وتختلط بتراب الطرقات والشوارع في كل مكان. أما دُور العائلات الكبيرة فإن الحركة فيها لا تهدأ، فإن دخلت دهليز دار من هذه الدُّور وجدت عددًا كبيرًا من الأكياس الكبيرة واقفة، يُطلُّ من داخل كل كيس رجل فتيٌّ أمسك بأطراف الكيس بين يديه وراح يكبس القطن بقدميه، وصبايا الدار يُزَوِّدنه بالقفف المملوءة بالقطن يدلقنه بين سيقان الرجال في الأكياس وهم يكبسون ويكبسون. تظل قامات الرجال تقترب من السقف إلى أن تصير الأكياس جامدةً صلبة تنتصب في مدخل الدار كالأبراج العالية، فيخيطونها بالمسلات، ليبدأ فرح الأطفال بعد ذلك مباشرة إذ يشرعون في تسلق هذه الأكياس بواسطة أمهاتهم أو آبائهم أو بعضهم البعض في صراخ وزئيط وضجيج طوال ما يقرب من شهر. إلى أن يفاجَئُوا ذات يوم برجل يلبس الجلباب الصوفي والعباءة والطربوش، وخلفه مجموعة رجال في شكل مهيب، لعله القفَّاص أو الحاج بركات صاحب المحلج الشهير في دمنهور، أو لعلَّه أحمد أفندي خليفة السمسار، مهمَّته السرح بأدمغة الفلاحين حتى يعجلوا بالبيع قبل انخفاض الأسعار وسفر الخواجات، وقبل أن تحدث في الأمور أمور تستدعي الندم على التراخي في البيع. الفلاحون

www.alkottob.com

أمكر منه فالواحد منهم لا بُدَّ أن يُؤَجِّل البيع حتى يجمع أرضه جَمعةً ثانية، وربما ثالثة، بعد أن يتفتح اللوز السفلي البعيد عن الشمس، وحتى يتمكَّن من خلط الجمعتين الثانية والثالثة بالجَمعة الأولى ليختفي الرديء في أعطاف الجيِّد، وتكثر كميَّة الجيد. هو يعرف أن السعر لا بُدَّ أن يأخذ في الارتفاع لأن نسبة كبيرة من الفلاحين تمسك عن البيع الفوري، وحينئذ يخطط بعضهم للبيع في السرّ خوف الحسد وخشية نشر التشجيع على البيع حتى لا ينخفض السعر. وبعضهم يبيع كمية في أول الموسم وكمية أخرى في نهايته. والسمسار لا يكفُّ عن الرواح والمجيء، فإذا ما جاء التاجر ليشتري فإنه يُبرز من جيبه خنجرًا معقوفًا، يغرُز به الكيس في أي بقعة يختارها فيخرج سن الخنجر بنتف من القطن ما إن يَرَها حتى يعرف نوع القطن وجودته من رداءته. وهكذا يفعل بكل الأكياس في أكثر من بقعة في الكيس الواحد، وشبيه بهذا الخنجر القلم الحديدي الذي يمسكه تاجر الحبوب، وهو قلم طويل مجوَّف بسنٍّ مُدبَّبة، يغرزه في الجوال ويخرجه فإذا بجوفه قد امتلأ بالحبوب، يفرغها في كفه ويفحصها. القفاص هو أبرع تجار الأقطان جميعًا، إذ هو يعرف حقيقة نوع القطن بمجرد تحسسه للكيس بأصابعه، ومع ذلك يُجري عليه الاختبارات الكثيرة. وهو رجل قصير القامة ضخم الجثة بلُغْد يلتفُّ حول عنقه الضخم، وعلى

أنفة منظار طبي سميك تلمع من خلف عدساته عيون صقرية النظرات. إذا ما اتفق على السعر ودفع العربون فإن رجلاً من أتباعه يمسك بكوز من الصفيح مملوء بصبغة خضراء وفرشاة يغمسها في الصبغة ويكتب على الأكياس اسم القفاص ووزن الكيس ورقمه لتجيء عرباته الكميون في اليوم التالي لنقل الأكياس ودفع بقية الثمن.

ليس لأمثالنا قطن نبيعه، فلسنا بفلاحين ولسنا بأنفار وإن كان بعضنا ينحدر من أصول فلاحية صرفة، والبعض الآخر ينحدر من أصول تمليَّة خالصة، ولكنَّ انقلابًا خطيرًا كان قد حدث لصالحنا فوحَّد بيننا وبين أهل الأصول كافة في البلدة، ذلك هو انفتاح المدارس لأبناء الجميع وانزواء المصاريف تحت أعقاب الأبواب. فبعد أن كانت العائلات الغنية تسعى إلى المدرسة بوسائط لأولادهم، جُرِّى الخفراء في البلاد وفي حقولها يجلبوننا قسرًا وبالقوة إلى المدرسة. فلمَّا أن انخرطنا في سلك التعليم انفتحت أمامنا مغاليق لا حصر لها، كم بذلنا من جهود جبَّارة أنا ولفيف من رفاق الحارة والحقل والعرق باليومية في لهيب الشمس، في مقاومة آلام الانسلاخ من شخصية «النفر» للدخول في شخصية «التلميذ».

شخصية «النفر» رافقت شخصية «التلميذ» سنوات بحكم ضرورة البقاء أحياءً نُرزَق. وهذا القطن الذي بدأت تتدفق

www.alkottob.com

بشائرهُ الآن أكوامًا من الذهب الأبيض كالحليب الرائب، شقينا نحن في زراعته وإنمائه، من حَرْث إلى بذر إلى ريٍّ إلى عَزيق إلى نقاوة لُطَع إلى جَمْع، أنفارًا باليومية. تهرَّأت أبداننا من عصا الخولي في نقاوة اللطع شهورًا طويلة كالحة في لون الملح واللفت والصهد، وتقرَّحت جلودنا في جَمعه من أطرافه الناشفة المدببة، واليومية ستة قروش عمياء لا ترَى أبعد من كوبة أرز يأكلها إخوتي في عشوة، والواحد منَّا يدبِّر لأبيه كل خمسة أيام كيلة قمح. ذلك ما نفعله دائمًا في الإجازات الصيفية فيما نحن تلاميذ في مدرسة البلدة الإلزامية التي انقلب وضعها بعد ثورة يوليو وأصبحت ابتدائية يحصل منها التلميذ على الشهادة الابتدائية في نهاية السنة السادسة من التحاقه بها، فتساوينا بذلك مع أقراننا الذين التحقوا بالمدارس الابتدائية في البندر، مع فارق مُهمٍّ هو أنهم كانوا يدرسون مادة اللغة الانجليزية أما نحن فلم نكن نعرف عنها شيئًا.

صارت لنا في التلمذة أقدميَّة وفي النفرية مثلها. ما إن علمنا أننا في نهاية هذا العام سنحصل على الشهادة الابتدائية من بلدتنا، وأننا سنؤدي الامتحان بأرقام جلوس أمام لجنة في بندر دسوق حتى انتفخت أوداجُنا، حقَّ للواحد منَّا أن يحترم نفسه ويكُفَّ عن الاشتغال أجيرًا باليومية في الحقول، وعليه أن يدبر رزقه من أي باب آخر يكفيه- ولو قليلا- مؤنة المهانة

تحت رحمة الخولة من أبناء الساقطات. من حُسْن حَظِّنا جاء الإصلاح الزراعي ونحن في مرحلة الخروج النهائي من شخصيَّة النفر لندخل دخولاً لا رجعة فيه في شخصية التلميذ، إذ تأكَّد المستقبل أمامنا حلوًا كاسحًا، فالتعليم قد أصبح بالمجان، والعمل المحترم قد أصبح متاحًا، أصبح لمعرفتك القراءة والكتابة نفع مادي تجني ثمرته. لقد أتيح لطالب في الابتدائية مثل «طُلْبة الجرف» أن يتوظف ملاحظًا للأنفار لدى الإصلاح الزراعي في موسم نقاوة الدودة، مثله مثل «شكري أفندي» الذي كان معاونًا للأنفار في وسية أفندينا، فتهيأ «لطلبة الجرف» أن يركب حمارًا، وأن يمْضي بين الحقول بجلبابه الزُّفير ذي الياقة والأساور والسُّفرة، ويضع على رأسه قبعة كقبعة الناظر خفاجه، وفوق ذلك يفرد شمسية كشمسية المفتش العام، ويتأبط دفترًا مثنيًّا ينطبع إبطة عليه بخَتَّامة العرَق. عليه أن يتوقف لدى كل فرقة من فرق المقاومة، فكلها تابعة للإصلاح الزراعي وتحت إشرافه، ويترجَّل. عندئذ يتوقف الأنفار على رءوس خطوطهم، فيُقيِّدهم في دفتره بالاسم مشفوعًا بالنظر، ليتأكَّد لديه أن كل صاحب فدان قطن قد أرسل نفرًا هذا في الصباح الباكر، وعليه أن يعاود الكَرَّة عند الأصيل ليتأكَّدَ أن كُلَّ الأنفار مازالوا موجودين وأن أحدًا منهم لم ينتهز فرصة تقييده لينصرف برشوة الخولي أو تدليس من الباشخولي. ولا بُدَّ أن يُقيِّد في دفتره كل مخالفة، ليتولَّى الاصلاح الزراعي إنزال العقاب.

www.alkottob.com

مُعظَمُنا بات يطمح في وظيفة كهذه تُعينُه على مصاريف السكن والإقامة في البندر. على الواحد منّا- فقط- أن يُكمل السنة السادسة في المدرسة ليكون قد حصل على الشهادة الابتدائية، بعدها يحق له أن يلتحق بمرحلة تعليمية أخرى خارج البلدة في إحدى المدن القريبة.

وهكذا صار علينا أن نتفنَّن ونتحايل في الحصول على القرش من سبب شريف. ولقد خدمتنا الظروف أيضًا إذ إن ثورة يوليو، التي أصبحنا ننطق اسمها بفصاحة ودقّة وفخامة، قد نشرت في أجواء البلاد شعارات جميلة برَّاقة كان يحلو لنا أن ننطقها في بلاغة وطلاقة كأنها الدليلُ القاطع الحقُّ على صدق انتمائنا للمدرسة: العمل واجب، العمل حق، العمل شرف. على هذا الضوء استأنف بعضُنا العمل نفرًا أجيرًا كما كان، ولكن في فترة الإجازة الصيفية فحسب. أما البعض الآخر فانصرف يعمل بائعًا في محلات البقالة الكبيرة، أوْ صبيًا لدى الخياطين أو النجارين أو البنائين أو مقاولي الأنفار.

كان علينا أن نسلح وجوهنا بقدر عظيم من «الكلاحة» وغلظة القفا. نسمع الهمس من ورائنا كوخز الإبر المسمومة اللاهبة: «عامللّي تلميذ! يروحش يشوف أبوه الجربوع؟!. ما شافش أمه اللي من غير لباس؟ قلع البيسة وركب السيسة! يا خي دهده!!»، فعلى كتف الواحد منّا أن تكون صلبة ملساء؛ كي تنْزلق فوقها

أسنان الإبر. وإذ نكون سائرين حاملين المخلات تحت آباطنا مليئة بكتب المدرسة وكراريسها، بسَمْتنا الفلاحي الخشن وربما القذر، يحاول الواحد منّا الدخول شيئًا فشيئًا- وبشقّ النفس- في سيماء التلاميذ المسمسمة لعله يبدو كالتلاميذ الحقيقيين الذين دخلوا المدرسة عن عمد وسبق إصرار من آبائهم، أيقظتهم أمهات ساهرات مبكّرات عارفات، غسلن وجوه أبنائهن بالليفة والصابونة وألبسنهم نظيف الثياب وزوَّدنهم بحلو الطعام والفاكهة، وحيث يوصلهم إلى المدرسة رجال وينتظرهم في الدار رجال يسألونهم في اهتمام مبتج:

«خُدتوا إيه النهارده في المدرسة؟!» هم يذهبون إلى المدرسة باحتفال يليق بالمدرسة. أمّا نحن فقد طلبتنا المدرسة فجئناها خاضعين يسحبنا الخفراء من أطواق جلابيبنا حفاة صدئين، بعضنا مبهور راغب متطلّع، والبعض الآخر سأمان كاره نادم على يومية كان سيقبضها من حقل الوسية ستة قروش عظيمة في مقابل أن يحمل المخلاة كل يوم: ورايح فين؟ رايح المدرسة! وجاي منين؟ جاي من المدرسة! يا فرحتي. معظمنا- والحق يقال- كانوا من المبهورين الراغبين المتطلّعين، ولهذا وجب عليهم تهيئة الوجه لكل قذيفة ساخرة يطلقها واحد من زملائنا السابقين في شغل الأنفار، إذا ما التقَوْا بنا فجأة في الشارع ونحن ذاهبون إلى المدرسة فيما هُمْ متوجّهون إلى ملم الأنفار.

www.alkottob.com

مُعظَمُنا بات يطمح في وظيفة كهذه تُعينُه على مصاريف السكن والإقامة في البندر. على الواحد منّا- فقط- أن يُكمل السنة السادسة في المدرسة ليكون قد حصل على الشهادة الابتدائية، بعدها يحق له أن يلتحق بمرحلة تعليمية أخرى خارج البلدة في إحدى المدن القريبة.

وهكذا صار علينا أن نتفنّن ونتحايل في الحصول على القرش من سبب شريف. ولقد خدمتنا الظروف أيضًا إذ إن ثورة يوليو، التي أصبحنا ننطق اسمها بفصاحة ودقّة وفخامة، قد نشرت في أجواء البلاد شعارات جميلة برّاقة كان يحلو لنا أن ننطقها في بلاغة وطلاقة كأنها الدليلُ القاطع الحقُّ على صدق انتمائنا للمدرسة: العمل واجب، العمل حق، العمل شرف. على هذا الضوء استأنف بعضُنا العمل نفرًا أجيرًا كما كان، ولكن في فترة الإجازة الصيفية فحسب. أما البعض الآخر فانصرف يعمل بائعًا في محلات البقالة الكبيرة، أوْ صبيًا لدى الخياطين أو النجارين أو البنائين أو مقاولي الأنفار.

كان علينا أن نسلح وجوهنا بقدر عظيم من «الكلاحة» وغلظة القفا. نسمع الهمس من ورائنا كوخز الإبر المسمومة اللاهبة: «عامللّي تلميذ! يروحش يشوف أبوه الجربوع؟!. ما شافش أمه اللي من غير لباس؟ قلع البيسة وركب السيسة! يا خي دهده!!»، فعلى كتف الواحد منّا أن تكون صلبة ملساء؛ كي تنْزلق فوقها

أسنان الإبر. وإذ نكون سائرين حاملين المخلات تحت آباطنا مليئة بكتب المدرسة وكراريسها، بسَمْتنا الفلاحي الخشن وربما القذر، يحاول الواحد منّا الدخول شيئًا فشيئًا- وبشقّ النفس- في سيماء التلاميذ المسمسمة لعله يبدو كالتلاميذ الحقيقيين الذين دخلوا المدرسة عن عمد وسبق إصرار من آبائهم، أيقظتهم أمهات ساهرات مبكّرات عارفات، غسلن وجوه أبنائهن بالليفة والصابونة وألبسنهم نظيف الثياب وزوّدنهم بحلو الطعام والفاكهة، وحيث يوصلهم إلى المدرسة رجال وينتظرهم في الدار رجال يسألونهم في اهتمام مبتج:

«خُدتوا إيه النهارده في المدرسة؟!» هم يذهبون إلى المدرسة باحتفال يليق بالمدرسة. أمّا نحن فقد طلبتنا المدرسة فجئناها خاضعين يسحبنا الخفراء من أطواق جلابيبنا حفاة صدئين، بعضنا مبهور راغب متطلّع، والبعض الآخر سأمان كاره نادم على يومية كان سيقبضها من حقل الوسية ستة قروش عظيمة في مقابل أن يحمل المخلاة كل يوم: ورايح فين؟ رايح المدرسة! وجاي منين؟ جاي من المدرسة! يا فرحتي. معظمنا- والحق يقال- كانوا من المبهورين الراغبين المتطلّعين، ولهذا وجب عليهم تهيئة الوجه لكل قذيفة ساخرة يطلقها واحد من زملائنا السابقين في شغل الأنفار، إذا ما التقَوْا بنا فجأة في الشارع ونحن ذاهبون إلى المدرسة فيما هُمْ متوجّهون إلى ملم الأنفار.

www.alkottob.com

مجتمع المدرسة كان يرفضنا ومجتمع الأنفار يهزأ بنا علنًا بحكم الدلال والوصال القديم والعشم، وآباء التلاميذ الأصلاء يسلقون أقفيتنا، وحتى العقلاء من أهل القرية كانوا يُبْدون الإعجاب بأن نكون من بين التلاميذ، ولكنَّ إعجابهم يجيء دائمًا مبطَّنًا بعدم الاقتناع بأننا سننفع، لأن الطبع يغلب التطبُّع، ولكن كله على الله، ومين عارف؟!.. وكم بذلنا من جهود جبارة في احتمال بَذَاءَات الأولاد الذين هم في عُرف البلدة أبناء مدارس بحق وحقيق، أي أبناء ناس من غير الأنفار والأجراء، ناس قادرين. وفي الواقع كان شكلنا يبعث النفور حقًّا، ولكن ما حيلتنا في ذلك؟

لم يكن على الواحد منَّا سوى أن يوقظ نفسه بنفسه في مطلع الصبح، ليطُسَّ وجهه بحفنة ماء، ويقضم كسرة ويلفح المخلاة، وبنفس الثوب الذي كان نائمًا به منحشرًا بين إخوته، وبنفس الطاقيَّة الغبراء، تتصاعد منه روائح حشرات عديدة انفقعت وسالت دماؤها- دماؤه- بين حنايا الثوب وثنيات الخياطة مختلطة برائحة عَرَق وعُفونة، وبأقدام مفلطحة غليظة ربما لا تخضع لمقاييس الأحذية المباعة، ناهيك عن منظر المخلاة التي هي في الأصل- في معظمها- بقية من ساق سروال قديم، تعجُّ بالكتب والكراريس كيفما اتفق، ودواة حبر أزرق نملؤها كل يوم من قنينة المدرسة لتندلق فوق الكتب والكراريس تنيلها بنيلة، وتصبغ المخلاة.

بكل ذلك ينطلق الواحد منَّا إلى المدرسة مُهَرْولاً بهمَّة نفر يخشى أن تتجاوزه الأنفار، وبيقظة وانتباه نفر يخشى عصا الخولي المفاجئة ويقيم لها ألف حساب، وبصبر وصلابة نفر يدرك أنه في نهاية اليوم سيكافأ بسته قروش عظيمة النفع، حتى ولو تأجل قبضها إلى ما لا نهاية، وكل ذلك- مع ذلك- كان شيئًا يبعث على الفخر الغامض ذلك الغموض المفعم بالآمال العراض.

غير أننا كنا نشعر بغُصَّة في الحلوق حين يتأكَّد لدينا أن جمهرة المدرسين والنظار والمفتشين ينحازون إلى الأولاد الأكثر نظافة حتى ولو كانوا أغبياء حَمْقَى. ذلك أن هؤلاء الأولاد لم يكونوا مصدرًا لأي مشاكل، فإذا طلب من كل تلميذ قرش لأمر من الأمور التي لم نكن نفهمها، جاءوا به جميعًا في اليوم التالي، وإذ طلب منهم كتاب أو كُرَّاس كانوا أسرع من يجيء به، ونبقى نحن في كل حصَّة مصدرًا للكلام والفضائح والشتائم المُقذعة. زغلول والعسلي والبصيلي وابن الحشاش ولدان معي جمعَنا الفقر والعوز لكنه لم يوحِّدنا على شيء نفعله معًا، إنما وحَّد بيننا التوبيخ في ساحة الفصل بين جميع الزملاء، فنشأت بيننا علاقة عجيبة، تقضي- دونما اتفاق مسبق- أن يقول الواحد منا للآخر عن أي سبيل جديد يكتشفه يمكن أن يجيء من ورائه خير. وهكذا نشأت فكرة الاستفادة من موسم القطن.

هي في الأصل فكرة العسلي، الوحيد الذي لم تعنه مسألة الفرق بين التلميذ والنفر، إذ يسعى في الحقول بقية النهار

www.alkottob.com

باحثًا عن رزقه تحت أقدام الفلاحين الأعيان وفي أعطاف الأرض الغنية المعطاءة، فيعود كل مساء وقد حمل بين يديه شيئًا يأكله أو يبيعه، وإن لم يجد شيئًا فليجتث النجيل الأخضر من على شواطئ القنيان فيجمع حزمًا كبيرة يبيعها في مدخل البلدة للحاج محمود أبو بكر الذي يملك منحلاً كبيرًا ومزرعة للأرانب والطيور في مقابل بضعة ملاليم أو أكلة عسل. وشكله مثل رأس الفجلة رفيع من أعلى غليظ من أسفل، رأسه كرأس الهدهد لكن تخرج منه الأعاجيب. أنجبه أبوه بعد بلوغه سن السبعين من امرأة ضالة من قبائل الغجر، فصارت مُهمَّتها العناية به في كهولته والجري على رزقه بالخدمة في بيوت الناس.

وقد تبعه زغلول في بداية الأمر واندفع في تقليده فتبعتهما أنا الآخر. أصبحنا نلتقي كل صباح فنتسلل إلى الحقول التي تم جمع قطنها مرتين فباتت حطبًا جافًا، نجول بين خُطوطها، نلتقط النتف التي بقيت في اللوزات، نترصَّد لوزات كانت في أسفل الشجيرات لم ينتبه إليها الجامعون. ونعود آخر النهار مُشَوَّهي الأيدي والسِّيقان بخرابيش اللوزات الجافة، وفي يد كل منا منديل محلاوي به حفنة من نتف القطن تملأ قبضتين، وكلٌ أملنا أن نجمع في نهاية الموسم ما يباع لقاء بريزة أو بريزتين.

بـــراءة

الولد سميح شاطر جدًا، نشيط، يصحو مبكرًا من تلقاء نفسه، يدخل دورة المياه ويخرج منها نظيفًا متجدّد النشاط، يلبس ثيابه لوحده، يشرب كوب الشاي باللبن مع شطيرة مغموسة بالجبنة البيضاء، يصلّي الصبح كالعادة، يحمل حقيبته ويمضي إلى المدرسة. في الطريق يُلقي تحية الصباح على كلٍّ من يعرفه، حتى إذا ما وصل إلى المدرسة وقف في طابور الصباح في الفناء رافعًا رأسه وصدره كالرياضيين، وغير خائف من أي شيء، إذ هو واثق من نظافة ثيابه ويديه وأظافره المقلمة وحذائه، كما أنه قد حل الواجب قبل أن ينام.

لكنه سرعان ما يتذكر شيئًا أقلقه وهو واقف في الطابور، ذلك أن كتاب «سلاح التلميذ» الذي اشتراه أبوه له بالشيء الفلاني امتثالاً لطلب جميع المدرسين، قد ضاع منه منذ يومين ولا يعرف كيف اختفى، لكنه يعرف أنه قد أخطأ خطأً كبيرًا يوم وضع حقيبته على الأرض في مواجهة حقيبة زميله يحددان بهما شبكة المرمى الذي سيقف هو حارسًا له في مباراة يلعبها في جرن وراء المدرسة مع زملائه في فسحة الظهيرة. هو متأكد من أن ولدًا من مدرسته قد سرقه، ولا بُدَّ أن يكون من نفس

www.alkottob.com

سنته الدراسية، من هؤلاء العيال البلطجية الذين يريدون تحصيل العلم دون أن يتكلّفوا أي نفقات حتى ولو كانت ثمن كتاب. المشكلة الآن أنه لا يعرف بماذا يردُّ على المدرسين حينما يطلبون إخراج الكتاب وفتحه على صفحة كذا، ولا بماذا يردُّ على أبيه إذا سأله عنه. هل يكذب فيقول للمدرس إنه أعاره لزميل ينقل منه درسًا، ولأبيه بأنه نسيه في درجه في المدرسة؟!. إن الكذب يغضب الله، والكذاب يذهب إلى جهنم. هل يقول الحقيقة إذن وأمره إلى الله؟!. سوف يضربه أبوه ضربًا مبرحًا لسببين كلاهما يستوجب العقاب: اللعب في الشارع بما يجرُّه من توسيخ الهدوم وإتلاف الحذاء والانصراف عن الدرس، وضياع الكتاب الذي ادَّخر أبوه ثمنه- كما قال- من مصروف البيت.

أخذ سميح يقرأ الفاتحة في سره لكي يُلْهِمَهُ الله ردًّا مناسبًا وحيلة مناسبة لشراء كتاب جديد. وحين انتهى الطابور وبدأ اليوم الدراسي ودخل المعلم وطلب الكتاب والصفحة ولاحظ أن سميح بلا كتاب، اقترب منه وسأله، فتلجلج، لخبط في الكلام، قال إنه أعاره لزميل، ثم عاد وقال إنه نسيه في البيت، ثم ارتبك فقال إنه ضاع منه، فشكَّ المعلم في صدقه فضربه «عشرة عصيّ» على يديه أشعلت النار في بدنه فصار يصرخ. حينئذ أدرك أن الكذب لا يُنجي، وأن الكذاب ينال عقابه في الحال. وفي نهاية اليوم الدراسي أدرك أيضًا أن الله لا يُلهم المهملين الذين لا

يحرصون على أشيائهم. ملأ الغضب صدره بالحقد على اللصّ الذي سرق كتابه، تمنَّى لو يراهُ لكي يضربه «عشرة عصيّ» على يديه كالتي نالها اليوم.

مضى من وراء المدرسة متجهًا إلى بيتهم. فوجئ بحقيبتين موضوعتين لتحديد شبكة حراسة المرمى. كانت إحدى الحقيبتين مفتوحة والكتب كلها مكشوفة ومن بينهما كتاب سلاح التلميذ. خفق قلبه، نظر حواليه مفتشًا عن العيال، وجدهم ملمومين عند المرمى البعيد، مُنكبّين فوق زميل لهم يتأوَّه متألّمًا ممسكًا بقدمه، شكَّه الألم في صدره، شرع يجري ليطمئنَّ على زميله المصاب وليعرف من هو. لا يدري لماذا اتجه نحو الحقيبة المفتوحة، كذلك ليس يدري كيف انحنى على كتاب سلاح التلميذ والتقطه ثم وضعه بسرعة في حقيبته هو، لكنه قال لنفسه إنه يرتكب هذه الحرمانية من أجل المزاح فحسب ليعطي صاحب الكتاب درسًا عمليًّا في كيفية الحرص على أشيائه ثم يعطيه له. إلا أنه حين وجد أنَّ العيال لم يروه، وجد نفسه يرتدُّ بسرعة ليختفي عن أنظارهم تمامًا ويغير سكَّته إلى بيته.

في تلك الليلة لم ينَمْ سميح، ظل مؤرقًا يتقلَّب في الفراش وقد استقرَّت في رأسه صورة زميله صاحب الكتاب المسروق وهو يتوجَّع من ضربات عصا المعلم على يديه، وأم الولد وهي تقرصه في جنبه وتدعو الله أن ينتقم من سارق ابنها. ولم يكن

www.alkottob.com

يعرف ما إذا كان صاحيًا بالفعل أم أنَّ دماغه يفكّر وهو نائم، إلا أنه رأى نفسه يمشى في الشارع وكائن خرافيٌّ عملاق- لم يستطع رؤيته- يقبض على يده، ومن خلفه العيال يُطَبّلون على الحقائب هاتفين فى إيقاع ساخر: «الحرامى أهه.. أهه.. الحرامى أهـه.. أهـه»، وفي الصباح، فوجئ بأمه توقظه في خشونة، فانتفض مذعورًا وقد ظن أن أمه لا بُدَّ وقد علمت أنه سرق كتاب زميله، إنها إذن لكارثة، فأمه قد تعفيه من العقاب إذا علمت أن كتابه قد ضاع منه، لكنها لا يمكن أن تعفو عنه إذا علمت أنه لصّ.

تعجّبت أمه من عدم استيقاظه في موعده ككل يوم، ثم انزعجت لانزعاجه وانخطاف لونه، لكنها طمأنت نفسها مرددة:

- «ماذا بك؟ أكنت تحلم حلمًا مزعجًا؟!»

قال: نعم، وافتعل ابتسامة رآها في المرآة شاحبة، كما أن شكله في المرآة لم يعجبه، راح يتأمله وهو جالس على حرف السرير ويندهش من هذه السحنة الغريبة التي طرأت على وجهه، فيها التواء وشحوب العيال الأشقياء البلطجية الذين لا يحبهم.. غادر الحجرة متجهًا إلى دورة المياه ليغتسل جيدًا فلعل المياه تزيل هذه السحنة الغريبة عن وجهه.

عندما خرج إلى الشارع لاحظ أن السماء مكفهرّة، والرعد يزلزل الأرض بشدة، ثم تبين بعد خطوات أن الرعد هو صوت كركبة مدوية في بطنه مصحوبة بمغص ووجع. فأيقن

أن الله غاضبٌ منه تمامًا ولسوف يُنْزل به أشد عقاب. صار يتلفت حواليه، يحملق في أعين الناس، وكلّما استجاب أحدهم لحملقته ارتعب، متخيلاً أنه يعرف سره، أنه لص. ما بال كل الناس يحملقون فيه ويبتسمون؟! ، لابد أنهم جميعًا عرفوا أنه لص، وأنهم لهذا يحتقرونه، لن يأتمنوه بعد ذلك على شيء، لن يحبوه، سيهربون من صحبته.

ازداد عدد المحملقين فيه، دون أن ينتبه إلى أنه هو الذى يحملق فيهم فيدعوهم بذلك إلى الحملقة فيه أكثر للاستفهام عن السبب. شعر كأنهم يحاصرونه من كل ناحية، كل من يهم بعبور الشارع بالعرض يبدو في نظر سميح كأنه يعترض طريقه للقبض عليه، فيرتعد. يرتفع دويُّ الكركبة في بطنه حتى خشي أن يفعلها على نفسه. أخذ يسرع الخطى، يهرول. استوقفه رجل مُسنٌّ شكله مألوف، سأله: لماذا تجري يا ولد؟! كاد يصرخ في طلب النجدة، سقطت منه أصواتٌ قبيحة عجز عن حبسها فى بطنه. ضحك الرجل المسنُّ، وهزَّ رأسه وزام ثم ربت على كتفه قائلاً في اعتذار:

- «ألهذا تجري لتلحق بدورة المياه؟ ربنا يفك عنك يا بني! أمسك نفسك وكن رجلاً حتى تصل للمرحاض!»

لم يصدّق سميح أن الرجل قد أفرج عنه. ما كاد يبتعد حتى أتاه خاطر يقول له: ألق بالكتاب في الشارع وتخلص من جريمتك.

www.alkottob.com

كاد يفعل، لكن خاطرًا آخر قال له: إياك أن تفعل فقد يراك أحد فينفضح أمرك. فاندفع مهرولاً كأنه يريد أن يهرب من الدنيا كلها، وكلَّما أراد أن يقول: يا رب نجني من الفضيحة، ينخرس لسانه في الحال إذ هو يعرف أن الله غاضب منه ولن يغيثه بل لا يجب أن يراه. حينئذ أدرك سميح حقيقة لم يكن يدركها من قبل أبدًا: أن اللص شخص حقير جبان مهان يجب قطع رأسه كالحشرة السامة. أول شيء فعله بمجرد وصوله إلى المدرسة أنه اندفع يلوذ بدورة المياه. وحين استقرَّ على مقعده في الفصل كان المغص لا يزال يُعاوده بقَرْص مؤلم، فلما دخل المعلم أشار لهم بالجلوس بعد وقفة التحية. وجد سميح نفسه يخرج عن التحية ويتقدَّم من المعلم ممسكًا بكتاب سلاح التلميذ قائلاً: «لقيت هذا الكتاب يا أستاذ في الشارع وأنا عائد إلى بيتي بالأمس ولست أعرف مَنْ صاحبه!».

ثم عاد مسرعًا إلى التحية فانكمش في مقعده متمنيًا ألاَّ يكون أحد من زملائه قد رآه. المعلم تصفَّح الكتاب ممعنًا فيه النظر، ثم رفعه إلى أعلى ذراعه صائحًا: «كتاب من هذا؟»

جاء الولد هشام من آخر يعرج في مشيته يقول بفرح غامر:

- «كتابي أنا يا أستاذ ولي فيه علامات كثيرة».

هو إذن كتابك أنت يا هشام يا أعزّ أحبابي في المدرسة كلها؟ أهو أنت الذي أصيب بالأمس؟!.

وشعر سميح بأن المغص في بطنه قد تحوَّل إلى غازات تتحرك

بهدوء أراحه جدًا، ثم إنها سرعان ما اختفت، لكن المعلم لمحه جالسًا شاردًا بغير كتاب، فاقترب منه صائحًا في وُدٍّ كأنهما الأصدقاء:

- «وأنت أين كتابك يا سميح؟»

وقف سميح نصف وقفة ، وتمتم في قليل من الخجل وكثير من الشجاعة:

- «ضاع مني يا أستاذ ولم أجده حتى الآن وسوف أجعل أبي يشتري لي غيره».

رمقه المعلم بنظرة إكبار متسامحة، ثم اعتدل أمام السبورة صائحًا في التلاميذ:

- «يجب أن تصفقوا لسميح».

صفق الفصل كله بحرارة، اغتبط سميح وابتهج كأنَّ الكتاب قد عاد إليه كتبًا وكراريس وأقلامًا وبرايات، وطرق رأسه خاطر خبيث ومرح معًا يقول: ابسط يا عمّ! منذ بُرهة كنتَ لصًّا فصرت الآن بطلاً، فيا له من انقلاب. لم يسترح لهذا الخاطر تمامًا، إلا أنه استراح من المغص كأن لم يكن، ولمَّا خرج إلى الشارع في زحمة من عيال تشكره وتحسده على ما فعل، فوجئ بأن السماء قد صفت، والجو قد راق، فشعر بسعادة كبيرة جدًا، وبأنَّ أيّ عقاب بعد ذلك.. محتمل.

www.alkottob.com

المحتـوى

قُدّاس الشيخ رضوان ٥
ليلة السلعوة ٢٧
شريعة رزق كريمْ ٤٦
علاقة مشبوهة ٥٧
واحد مصري ٦١
الصفحة الثانية ٦٥
حصاد البؤس ٧٨
براءة ١٠٣

المؤلف في سطور

- خيري أحمد شلبي
- ولد في قرية شباس عمير- مركز قلين- محافظة كفر الشيخ في ٣١ يناير عام ١٩٣٨.
- عمل رئيسًا لتحرير مجلة الشعر.
- رئيس تحرير سلسلة الدراسات الشعبية- بالهيئة العامة لقصور الثقافة.
- عمل أستاذًا زائرًا بمعهد الفنون المسرحية لتدريس تاريخ المسرح المصري المعاصر.
- عضو لجنة القصة بالمجلس الأعلى للثقافة.
- له أكثر من سبعين كتابًا، ما بين رواية وقصة ومسرحية وكتابات نقدية.
- من رواياته: السنيورة- الأوباش- الشطّار- الوتد- فرعان من الصبار- ثلاثية الأمالي (أولنا ولد- وثانينا الكومي- وثالثنا الورق)- موال البيات والنوم- وكالة عطية- العراوي- صهاريج اللؤلؤ- بغلة العرش- لحس العتب- منامات عم أحمد السماك- صالح هيصة- بطن البقرة- رحلات الطرشجي الحلوجي- زهرة الخشخاش.
- من مجموعاته القصصية: صاحب السعادة اللص- المنحنى الخطر- سارق الفرح- الشماس- أسباب للكي بالنار- الدساس- أشياء تخصنا.
- من مسرحياته: صياد اللولي- غنائية سوناتا الأول- المخربشين.
- من كتبه النقدية ودراساته الأدبية: محاكمة طه حسين: تحقيق في قرار النيابة في كتاب الشعر- غذاء الملكات: دراسات نقدية- دراسات في المسرح العربي- مسرح الأزمة: نجيب سرور- فلاح في بلاد الفرنجة: رحلة روائية- لطائف اللطائف: دراسة في حياة الإمام الشعراني- أبو حيان التوحيدي- مؤرخو مصر الإسلامية.
- ترجمت معظم أعماله إلى الروسية والصينية والأوردية والإنجليزية والفرنسية والعبرية والإيطالية.
- حصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى- ١٩٨٠.
- جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٨٠.
- جائزة أفضل رواية عربية عن رواية «وكالة عطية» عام ١٩٩٣.
- جائزة أفضل كتاب عربي من معرض القاهرة للكتاب، عن رواية صهاريج اللؤلؤ ٢٠٠٢.
- جائزة ميدالية نجيب محفوظ من الجامعة الأمريكية، عن رواية وكالة عطية ٢٠٠٣.
- جائزة الدولة التقديرية ٢٠٠٥.

www.alkottob.com

كتاب مجلة الإذاعة والتليفزيون

صدر منه :

١ - السيرة النبوية، للأولاد والبنات ..... عبد الناصر عيسوي

٢ - سيرة الخلفاء الراشدين، للأولاد والبنات..... " " "

٣ - قصص الأنبياء، للأولاد والبنات جـ١..... " " "

٤ - قصص الأنبياء، للأولاد والبنات جـ٢..... " " "

٥ - حكاية حرب أكتوبر، للأولاد والبنات ..... أيمن سلامة

٦ - من مغامرات شارلوك هولمز: ترجمة وتقديم:

الرجل ذو الشفة المقلوبة. لآرثر كونان دويل..... د. عزة مازن

٧ - مقدمة في الديمقراطية (كتاب لم يُنشر) إعداد وتقديم:

للدكتور طه حسين ..... إبراهيم عبد العزيز

٨ - أبي.. شارلي شابلن، بقلم: شارلس الابن..... ترجمة: محمود علي الدكتور

٩ - الحج إلى بيت الله الحرام..... عبد الحليم محمود

١٠ - قُدَّاس الشيخ رضوان (مجموعة قصصية) ..... خيري شلبي

www.alkottob.com

ها نحن نواصل ما بدأناه في شهر رمضان، حيث نصدر هديتنا للقراء مجلة الإذاعة والتليفزيون في صورة كتاب. وقد قطعنا العهد على أنفسنا أن نختار ما يناسب القارئ العام والمتخصص على السواء، في مجالات متعددة، من فكر وإبداع وفنون وتراث وعلوم وبعض الأعمال المترجمة. وهذا تعبير منا عن إيماننا العميق بالحملة التي ترعاها السيدة الفاضلة سوزان مبارك، وبما تقومُ به الحملة القومية للقراءة للجميع من تأسيس أبنائنا والنهوض بهم في كل نواحي الحياة، ودعم كل ما هو ثقافيٌ وحضاريٌ من أجل النهوض بالإنسان، حتى أصبحنا نُحس ونشهد بأنَّ القراءة للحياة.

www.alkottob.com